وزارة الثقافة

على سكة الحجاز

تأليف: جمال الحسيني

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

على سكَّة الحِجاز

تأليف: جمال الحُسَيني

صدرت الطَّبعة الأولى منها عام ١٩٣٢
عن مطبعة دار الأيتام الإسلاميَّة في القدس

وزارة الثقافة الفلسطينية
سلسلة الموروث الثقافي
اسم المؤلف: جمال الحُسَيني
اسم الكتاب: على سكَّة الحجاز
الطبعة الأولى: ١٩٣٢ عن مطبعة دار الأيتام الإسلاميَّة في القدس

الطبعة الثانية: ٢٠٢٢
مراجعة وتدقيق: رشيد عِناية - نور عرفات
تصميم الغلاف: فاطمة حسين
لوحة الغلاف للفنان: صوفي حلبي

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين
www.moc.pna.ps

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

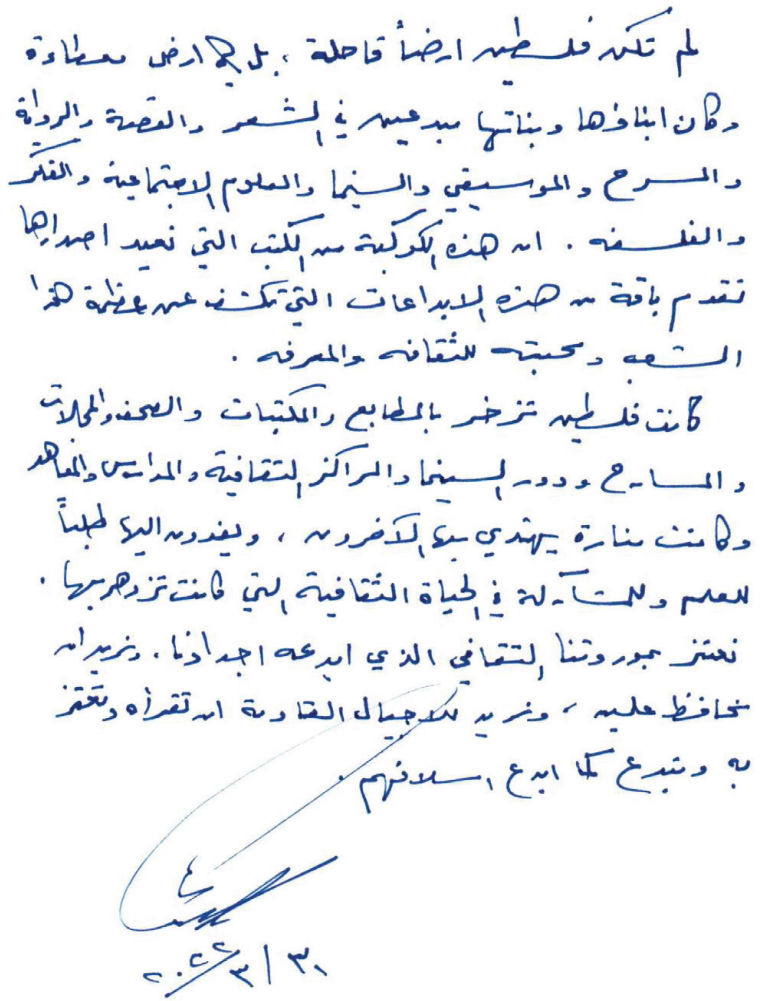

لم تكن فلسطين ارضاً قاحلة، بل كانت ارضاً معطاءة وكان ابناؤها وبناتها مبدعين في الشعر والقصة والرواية والمسرح والموسيقى والسينما والعلوم الاجتماعية والفكر والفلسفة. ان هذه الكوكبة من الكتب التي نعيد اصدارها تقدم باقة من هذه الابداعات التي تكشف عن عظمة هذا الشعب وحبه للثقافة والمعرفة.

كانت فلسطين تزخر بالمطابع والمكتبات والصحف والمجلات والمسارح ودور السينما والمراكز الثقافية والمدارس والمعاهد وكانت منارة يهتدي بها الآخرون، ويفدون اليها طلباً للعلم والمشاركة في الحياة الثقافية التي كانت تزدهر بها.

نعتز بموروثنا الثقافي الذي ابدعه اجدادنا، ونريد ان نحافظ عليه، ونريد لاجيالنا القادمة ان تقرأه وتعتز به وتبدع كما ابدع اسلافهم.

٣٠ / ٣ / ٢٠٢٠

على سكَّة الحجاز

قِفَا نَبْكِ ...

وكنتُ أقعدُ بين أشجار الزيتون أتلقّى بملء صدري نسيمه العليل، وأُصغي إلى حفيفه الشجيّ، وأُمتّع الطرف من علوي الشاهق بمحاسن ذلك الوادي. ولم يكن ليعكّر صفوَ ذلك السكون الشامل، ويسلّمني من الخيال إلى الحقيقة، غير انطلاق القطار من حيفا إلى يثرب، تردد الجبال الشاهقات صدى صفيره، وتهتزّ الأودية بدويّ هديره، وهو ينهب الأرض بمن فيه من الألوف الذين حدا بهم الشوق الطاهر، والحبّ الخالص، لشدّ الرحال إلى قبر المصطفى، كي يجدّدوا العهد على الاهتداء بهديه، والنسج على منواله، والسير على سُننه.

هذا القطار أنشأه المسلمون بأموالهم، وأوقفوه على مصالحهم، وجمعوا فيه بين بلدين طاهرين، ومسجدين فريدين، هما مسجد الرسول والمسجد الأقصى. فكنت إذا ما نبّهتني ضوضاء هذا القطر عند مروره إلى هذه الطاهرة في الجامعة الإسلامية، فكرت في ذلك فيمتلئ قلبي غبطةً ونفسي سرورًا.

وهأنذا أقعد اليوم تلك القعدة لأُمتّع النفس بما عوّدتها عليه في تلك الأيام، وأرقب القطار الحجازي ينطلق من حيفا، فإذا بدا لي ارتدّ طرفي بدمعٍ سخين، وانكمشت مكاني بقلبٍ حزين، ذلك أن هذا القطار ينطلق من حيفا ولكن لا إلى مدينة الرسول! ويضمّ الألوف في أحشائه ولكن ممن لم تدفعهم إلى ركوبه عاطفة سامية أو مقصد جليل! ذلك أن هذا القطار حجازي بالاسم! ذلك أنه أنشئ من قبل المسلمين

ولمصالحهم فأصبح لليهود ولمصالحهم!

وكنتُ فيما سبق من الأيام أطلق نظري نحو قرية سَتّة، وهي تتهادى أمامي في وسط سهولها الواسعة كالوردة الحمراء في الرقعة الخضراء، وأرهف السمع لألتقط أراجيز العذارى وهنّ يسرن سروبًا كسروب القطا وراء مواشيهن من مرعى خصب إلى مورد عذب، حاملات أزاهير النرجس البري، يردّدن إذا ما ابتعد القطر بحمولته الكريمة:

طارْ قلبي طار - حوّل قِبلْ لِقطار - حمّلتو سلامي الحارّ _ للهادي النبي المختار شوفو الغمام سار - وْظلّلْ على الزوار - زوار أحمد المختار - سارو بْقلبي وْسار.

وهأنذا اليوم أطلق الطرف، وأجوب به الأفق، فلا أرى قرية سَتّة، ولا ما كان يحيطها من القرى العربية الآهلة، بل أرى بيوتًا متراصّة منتظمة وغير منتظمة، علت فيها ضوضاء وسائل النقل من سيارات وعجلات، وقد خيّمت عليها كآبة المدن، فلا أسراب للعذارى يحملن زهور النرجس البرّي، ولا أراجيز للمختار! بل هناك صوت يدوّي في الآذان. «المادة! المادة! المادة!» ومنظر لا تفارقه النواظر «يهود! يهود! يهود!».

ما أكثر ما يشعر به المرء من هذه الفروق في فلسطين بين الأمس والبارحة! وإنه ليتساءل: ماذا حلّ بتلك القرى العربية؟ وماذا حلّ بأهلها؟! أما القرى فقد دُرِسَتْ ولم يبقَ لها من أثر! وأما أهلها فالعربي يقول لك والأسى ملء فؤاده «أبادهم كيد الظالمين!» والحكومة

تقـول والخـزي يعلـو جبينهـا «تشـتّتوا في الأرض!» واليهـودي يقـول ونشـوة الانتصـار تمـلأ جوانحـه «تأسّـس عـلى أنقاضهـم وطـن قومـي.»

قريـة سَـتّة! كـم يحمـل إلي هـذا الاسـم مـن الذكـر وكـم ينشـئ في نفـسي مـن العواطـف المتضاربـة المتناقضـة! فـلا أدري أأَحـزن أم أغتبـط أم أشـمت أم أكتئـب! ذلـك أنهـا كانـت مصـدر مـآسٍ مريعـة فيهـا ذكـر وعـبر لمـن يعتـبر، أرى اليـوم أن أثبتهـا خشـية الضيـاع.

الفاجِعَة

في يـومٍ مـن أيّـام كانـون الأول اشـتدّ بـرده وعصفـت فيـه ريـحٌ صرصر، أذوت طـريّ النبـات، ودفعـت بالمـواشي إلى بيوتهـا والطيـور إلى أوكارهـا اتقـاء أذاه. في مثـل هـذا اليـوم إذ يعقـد الفلاحـون الحبـى حـول نيرانهـم يدخنـون ويتحادثـون ويتلـذّذون براحـة اضطراريـة في وسـط ذلـك الفصـل الكثـير الأعـمال. نعـم في مثـل هـذا اليـوم رَكِـبَ إميـل بـك المديـر صاحـب قريـة سَـتّة في زمـرة مـن رجـال الشرطـة لإخـراج المزارعـين مـن أراضيـه كيـما يسـلمها لليهـود خاليـة خاويـة. ويقبـض الثمـن تامًّـا كامـلًا.

وهـبَّ أهـل تلـك القريـة مـن بيوتهـم كالعصافـير ينقـضّ عليهـم باشـقٌ جـارح، تعلـو وجوههـم صُفـرة اليـأس والقنـوط، وتسـود عليهـم حـيرة مـن ضـلّ السـبيل، فـلا يـدرون مـا يصنعـون! وإلى أيـن يتوجهـون! وبـدت لأعينهـم القريـة وضواحيهـا عـلى مـا في ذلـك اليـوم مـن أذى بأبهـى حللهـا، فـرأَوْا في وهادهـا وجبالهـا جَـمالًا لم يـروه! وتجلّـت لهـم فيهـا معـاني لم يعرفوهـا فيـما سـبق! فكانـت في أعينهـم الحيـاة ومـا وراءهـا المـوت! رأَوْا فيهـا الأمـل وعـلى أبوابهـا اليـأس! أيـن يذهبـون؟ وفي أيّ وادٍ يهيمـون؟ هـم يخرجـون مـن قريـة ضيّقـة إلى فضـاء اللـه الواسـع وكأنهـم يدخلـون مـن فضـاء اللـه الواسـع إلى سـجن شـديد القـرّ، إذ ينتظرهـم شـبح الجـوع والعـري والحرمـان والمـوت!

قـام الرجـال يجمعـون مواشـيهم وأمتعتهـم والدمـوع تترقـرق في أعينهـم وهـم يـرددون وليـس لهـم مـا يقولـون إلّا «إنّـا للـه وإنّـا إليـه راجعـون! ولا

حـولَ ولا قـوة إلّا باللـه!» وتـولّى النسـاء والأطفال أمـر البكاء والعويـل، فكان منظـر يُفتّـت الأكبـاد! وكـم مـن أولئـك الرجـال حاملي البنـادق، الذيـن أتـوا لينفّـذوا القانـون الأصـمّ الجائـر، رفـع يـده خلسـة ليمسـح دمعـة سـقطت بـدون رغبـة منـه، وكـم منهـم مـن كبـحَ في صـدره جـماح أنّـةٍ كادت تطغـي عليـه مـن فـرط حزنـه، أمـا إميـل بـك المديـر صاحـب سَـتّة فقـد امتطـى جـوادًا مطهـمًا، وحمـل بيـده سـوطًا، ووضـع في طـرف فيـه سـيجارًا ضخـما، والتـفّ بمعطـفٍ مـن الفـراء مهيـب. وأخـذ يتقلّـب بـين الجماعـات المعذّبـة عـلى جـواده مهـدّدًا بسـواطه، وقـد جحظـت عينـاه، وانتفـخ شـدقاه، وأخـذ يهـدر «هـذي أرض اللـه واسـعة. حملتكـم جيـلًا فلـن أحملكـم بعـد اليـوم سـاعة.» وكلـما اشـتدّ عويـل المزارعـين اشـتدّ هديـر المالـك متوعّـدًا وسـوطه في يـده وسـيجاره في فمـه. وإذ بصـوتٍ يعلـو ذلـك الضجيـج، ويسـترعي إلى صاحبـه الأنظـار. وإذا هـي امـرأة منهـم تقـود فتـاة لم تتجـاوز التاسـعة مـن العمـر وتقـول «يـا قـوم! إذا كنتـم تـرون المـوت ينتظركـم خـارج هـذه البيـوت التـي عشـتم فيهـا أنتـم وآباؤكـم وعمّرتموهـا بأيديكـم وأيديهـم فلـم لا تنتظـروه فيهـا وتتّكلـوا عـلى اللـه؟» وصـاح شـيخ عـن يمينهـا قائـلاً «واللـه إن هـذا لهـو الصـواب!» ومـال الرجـال إلى مواشـيهم يحلـون عُقلهـا والنسـاء إلى أمتعتهـن يُرجعنهـا إلى بيوتهـن.

أمـا إميـل بـك فقـد كاد يُجـنّ فأخـذ يعـدو بجـواده كالمأخـوذ يهاجـم هـذا. ويهـدّد ذاك، ويـضرب ذلـك. وهـو كلـما انقـضّ عـلى ضعيـف مـن أولئـك الضعفـاء انـبرت لـه تلـك المـرأة وطفلتهـا بجانبهـا، فـكان كلـما رآهـا ورأى فتاتهـا ارتـدّ عـن فريسـته، حتـى ضـاقَ بهـا ذَرعًـا وصـوّرت لـه الظنـون أن

تلـك الظاهـرة سـتقوده إلى حـوادث ربمـا أجّلـت إتمـام الصفقـة، وقبـض الثمـن، فطغـت عليـه مادتـه وهجـم عـلى المـرأة يضربهـا بسـوطه، وأمسـك بـذراع طفلتهـا فألقاهـا بعيـدًا عـن أُمهـا، وهجمـت الأم عليـه كاللبـوة تدافـع عـن شـبلها، وقبـل أن تنشـب فيـه أظفارهـا، ارتخـت يداهـا وتفكّكـت مفاصلهـا، ثـم سـقطت عـلى الأرض والنـاس واجمـون. وألقـت ابنتهـا بنفسـها عـلى صدرهـا وصاحـت «أُمـي! أُمـي! ماتـت!» وركـض إليهـا شـيخ مـن رجـال القريـة يُقـال لـه الحويطـي عُـرف بعطفـه عليهـا وتبنّيهـا بعـد مـوت زوجهـا وذويهـا منـذ سـنين، فأخـذ بيدهـا وقلبهـا فـإذا هـي بـلا حـراك. فصـاح «ماتـت! ماتـت! قتلتهـا يـا إميـل! ويتّمـت طفلتهـا! أذاقـك اللـه مـرارة اليتـم! ولوعـة المـوت!»

وهـاجَ أهـلُ القريـة وهمُّـوا بالفتـك بـه فحـال الشرطـة بينهـم ومـا يبتغـون! وَأُرغِـمَ كبيرهـم إميـل بـك عـلى تـرك القريـة في الحـال خوفًـا عـلى حياتـه، ووعـد بـأن يتـمّ أمـر التخليـة بالتـؤدة والمسـالمة! فرجـع صاحـب القريـة إلى حيفـا وعـاد الـزرّاع إلى بيوتهـم يسـتعدون لِلَحـدِ ميتتهـم.

وفي المسـاء أخـذ رجـال الشرطـة يُفاوضونهـم في أمـرِ إخـلاء القريـة وبعـد بحـث وجـدال اسـتغرق تلـك الليلـة الليـلاء اتفـق الفريقـان عـلى إخـلاء القريـة بعـد شـهر كامـل، لـكي يتمكـن أثنـاءه كل المزارعـين مـن تدبـير مـكان ينـصرف إليـه ووجهـة يتولّاهـا وعمـلٍ يقـومُ بـه!

وقـد نـشرت الصحـف خـبر تلـك الكارثـة التـي قضـت عـلى ثلاثمائـة إنسـان آمنـين بالشـتات، واتصـل أمـر تلـك الفاجعـة بالمجلـس الإسـلامي الأعـلى

فأرسل رئيسه في طلب ابنة الضحيّة لكفالتها وتعليمها في مدرسة الأيتام الإسلامية. فحملها الحويطي بعد لَأْيٍ إلى القدس عام ١٩٢٣.

السرّ

قـرأتُ في الصحـف تفاصيـل هـذه الحادثـة، وقـد مـلأَ الأسى فـؤادي وزرتُ مدرسـة الأيتـام الإسـلامية. وقابلـت الفتـاة غريبـة محمـد الواسـطي، فـإذا هـي كـزرّ الـورد أخـذت تفتـح أكمامـه، عينـان واسـعتان، وأهـدابٍ طويلـةٍ سـوداء، ونظـرات هادئـة نافـذة، ولـون حنطـي مـشرب بحمـرة العافيـة، وأعضـاء متناسـبة جذَّابـة! لقـد رأيـتُ والدتهـا زينـب فيـما سـلف وكان بينـي وبـين زوجهـا صداقـة. وكانـت الأم تـزدان بمحاسـن خلّابـة وذكاء طبيعـي أورثتـه لابنتهـا مضاعفًـا.

وكنـت أعـرف أن زوجهـا كان شريـكًا لإبراهيـم بـك المديـر والـد إميـل. وكان هـذا الـزوج واسـمه محمـد حسـن الواسـطي يتمتّـع بثقـة إبراهيـم بـك لفـرطِ أمانتـه وحرصـه عـلى مصالحـه ومسـاعدته إيّـاه في نـوال حقوقـه مـن بقيـة المزارعـين. وقـد انخـرط محمـد حسـن في الجنديـة عـلى أثـر النفـير العـام سـنة ١٩١٤. وقـد ولـدت هـذه البنـت بعـد ذهابـه، وكان مـن سـوء حـظ هـذه المـرأة أن جـرح زوجهـا في وقعـة القتـال، ورجـع مـع المصابـين إلى داخـل الصحـراء عـلى ظهـور الجِـمال. وكنـت أنـا إذ ذاك مسـاعدًا لطبيـب فرقـة إغاثـة الجرحـى في الصحـراء، فجمعتنـي الصـدف بـه وهـو في أشـدّ حـالات الضعـف والنـزاع، فأسـلم الـروح دون أن يتمكـن مـن مكالمتـي! بـلى، إنـه حمّلنـي رسـالة بليغـة خطـيرة المعـاني بمـا ألقـاه إليّ بنظراتـه مـن دلائـل الاسـتعطاف والتوسُّـل!

ورأيـتُ مـن واجبـي عنـد الرجـوع إلى البـلاد أن أعـرج عـلى سَـتّة، وأُقابـل

زينب وأحمل إليها رسالته، وأعرض عليها مساعدتي ولكن شاءت الظروف أن يصل خبر الرجل إلى ذويه قبل رجوعي، فتلقّته المرأة بذهول وحزنت عليه حزنًا شديدًا! ولما لم يكن لها رجل تعتمد عليه غير ابن أخٍ لزوجها صغير السنّ كان يشتغل في عنابر السكة الحجازية بحيفا، فقد ارتمت في أحضان الحويطي، وهو شيخٌ عاقل وقور، لم يخلّف ذريّة، كان زوجها يُجلّه ويُكرمه، فتبنّاها ذلك الشيخ من تلك الساعة وحضنتها مع ابنتها ونصّب نفسه عليها وليًّا. فلما زُرت سَتّة قدّمتني زينب إليه فسُررت لمعرفته وشكرته على كرمه وتركت لها هديّة صغيرة ورجعت إلى سبيل.

وقفت أمام هذه الفتاة في مدرسة الأيتام مُعجبًا بجمالها، حزينًا على ما كان من أمرها، مُشفِقًا على مستقبلها. هذه المسكينة الصغيرة! مات والدها قتلًا وهي طفلة لا تعي وتركت قريتها شريدة طريدة ليس لها إلّا شيخٌ عاجز يعطف عليها! وابن عمّ لها في حيفا! من يعلم من هو وما هو! وكل منّا له أطفال يحوطهم بأنواعِ عناياته، ومع ذلك فإنّا نخشى عليهم الأذى يتسرّب إليهم من حيث لا ندري. أما هذه الطفلة الجميلة فليس من يحوطها بعنايته، ويرعاها بعطفه ومحبته، فلا يخشى عليها من الأذى يتسرّب إليها من كل جانب!

وقفتُ أمامها أُقلّب هذه الأمور، ثم تركتها حزينًا وانصرفت. ولكن هذه الأفكار ما زالت تُساورني الفينة بعد الفينة، حتى عزمت على زيارة الحويطي والتحدّث إليه في شأنها.

وكان هـذا الشـيخ يقطـن بلـدة جنـين عندئـذ، فزرتـه فيهـا، وأخـذت أُحادثـه فيـما يقتـضي لهـذه الفتـاة مـن السـهر والعنايـة، وسُرّ كثـيرًا لوجـود شـخص غـيره يعطـف عليهـا عطفـه. وأراد أن يثـق مـن حـدبي هـذا عـلى ربيبتـه، فطلـب إليّ، وهـو شـيخ كبـير، وأيّامـه معـدودة، أن أتبنّـى تلـك الطفلـة بعـد موتـه. حتـى إذا كـبرت زوجتهـا مـن ابـن عمّهـا أحمـد الواسـطي العامـل في عنابـر السـكّة الحجازيـة بحيفـا. وذكـر لي أنّـه تلقّـى عـن ذلـك الشـاب أخبـارًا سـارّة تـدلّ عـلى أنـه سـيكون كفئًـا لهـذه الفتـاة. فهـو ذو أخـلاق سـامية وجـدّ واجتهـاد اكتسـبت لـه ثقـة آمريـه بـه. ومكّنتـه مـن التقـدم والرقـيّ في أعمالـه، فقبلـت مـسرورًا بمـا عرضـه عـليّ.

وعندمـا هممـتُ بالانـصراف والعـودة إلى القـدس، رجـا إليّ أن أرجـئ سـفري تلـك الليلـة لأن لديـه سرًّا هامًّـا يـودّ أن يفكـر فيـما إذا كان مـن الواجـب الاطـلاع عليـه، فقبلـت رجـاءه، ومكثـت تلـك الليلـة في جنـين، ثـم عُـدت إليـه في الصبـاح، فقعـدت إلى جانبـه، ولاحظـتُ أن تلـك الابتسـامة الوضّـاءة التـي كانـت تعلـو وجهـه قـد امَّحَـتْ واعتـلى مكانهـا عبـوس بغيـض، وأن عينيـه لم تلاقنـي كالبارحـة بنظـراتٍ ثابتـة نافـذة. بـل كان ينظـر إلى الأرض، وينكـث الـتراب بإصبعـه، فخشـيت أن يكـون الشـيخ قـد نـدمَ عـلى مـا فـرط إليّ، فتغافلـت عـن حالتـه تلـك،

وقلـت: هل رأيـت أن تبوحَ لي بما فكّرت فيه البارحة؟

فقـال: نعـم. فهـدأ بـالي عندئـذ وقلـت طلبًـا لتطمينـه.. هـاتِ يـا شـيخنا مـا عنـدك واللـه رقيبنـا وهـو نعـم الوكيـل.

فقال: يا بُنيّ إني مقدم على إفشاء سرّ لم يعلم به إلى يومنا هذا غير ثلاثة أشخاص، مات أحدهم وبقي الآخران، وفي هذا السر مستقبل فتاتنا ومفتاح حياتها، فلا أرى أن أطلعك عليه حتى تقسم لي على كتمانه إلّا إذا كان الإفشاء في مصلحتها وذلك بعد موتي، أما في حياتي فأنا صاحب السرّ، وأملك وحدي حق الإفضاء به عندما أتبيّن صالحًا للفتاة في ذلك، فأقسمت له على الكتمان، فأصلح قعدته وقال: كان إبراهيم بك المدير يتردّد على قريتنا سَتّة لجمع محصولاته و تقسيم الأطيان فيما بين المزارعين، وتحصيل ديونه، وكان يحوط جميع أهل القرية بعنايته ويشملهم بعطفه، ويدرأ عنهم مظالم الحكام وتعدّي الجنود. فلما كبر ولده إميل وأتمّ دراسته، أخذ يستصحبه في زياراته تلك ليدرّبه على العمل. غير أن ذلك الشاب كان منذ أول نشأته، على نقيض والده، كثير الخيلاء والصلف، عديم الرحمة. وكان يأتي القرية لا ليعمل مع والده على ما فيه خيره وسعادته، بل كان يمتطي جواده ويسير به على غير هدى، يعاكس بنات القرية، ويعتدي على فتيانها، ولكنهم كانوا جميعًا يحتملون أذاه، مرضاةً لوالده.

وقد كان يرى زينب في جولاته هذه، فتسحره نظراتها الخلّابة، ويستهويه قدّها الجميل، فيميل إلى مداعبتها، وهي تغضّ عنه إكرامًا لأبيه، دون أن تدع له مجالاً للاقتراب منه.

لكن ذلك التساهل أدّى إلى تطوّر في قلب الشاب الممتلئ صحّة ونشاطًا، وفي قلب الفتاة التي تعجب بالقوة وتعبد السيطرة، فاشتعلت في قلبيهما نار الحبّ ولواعج الهوى، وأرادت هي أن تبتعد عنه، فتابعها

بتوسُّلاته واستدْناها بتضرُّعه وهيامه.

وكنتُ في القرية أُلاحظ بألمٍ سمات الحب تعلو وجهيهما، وتبدو في بعض حركاتهما، وزوجها منهمك في أعماله، يغدو إلى الحقول قبل طلوع الشمس فلا يرجع قبل غروبها، فلا يرى شيئًا ولا يلاحظ أمرًا. وباغتُّها ذات يومٍ وهي واقفة وإياه وحدهما في منعطف وقفةٍ مريبة، فانصرف هو على عَجَل، وتقدمت إليها، فألهبتُها بكلمات قارصة وتوبيخ جارح استنزل دموعها، ولكنها تخلّصت منّي بعذرٍ مختلق، وذهبت تتعثّر بأذيال الخجل، فظننتُ أن ذلك كافٍ لردعها عن تلك الغواية.

وكرّت الأيّام، ومات إبراهيم بك المدير، وكثر ترداد وارثه إميل بك على القرية، فأخذ يطيل مكثه فيها على غير عادةِ أبيه، مخلّفًا وراءه زوجةً وولدًا يتحرّقان لبعده. والتحق محمد حسن الواسطي زوج زينب بالجيش عند إعلان النفير العام، وخلا لإميل وزينب المجال، غير أنها في كل تلك المدة كانت تبدي من الرزانة والتعقُّل ما ستر ذلك الحبّ المتأجّج الذي زادته الأيّام اشتعالًا والتكتُّم رسوخًا. وأثّرت على إميل تأثيرًا عظيمًا حتى أصبح يتشبّه بوالده، في عطفه ومحبّته لمزارعيه فكان يتظاهر بمسايرة الجميع ورعاية الجميع، كي يكتم تلك العلاقة الآثمة بزينب.

وجاءت زينب إلى بيتي، بعد سفر زوجها بثلاثة أشهر، وعلى وجهها سحابة كآبة، وفي نفسها حزن بيِّن الآثار. وكان يبدو عليها أنها تريد أن تقول شيئًا فيردها عن ذلك الرعب والحياء. وكنتُ أخاف أن

أُشجّعها على الكلام خشية سماع أمرٍ بسوء سمعة زوجها في غربته ويدخل إلى قلبي كرهها واحتقارها! ثم ذهبت ولم تقل شيئاً. وعادت في اليوم الثاني والثالث، وهي على تلك الحالة. وقد زاد وجهها عبوسًا واصفرارًا وكآبة. فرأيت من الواجب أن أفاتحها أنا بالأمر، لعلّي أتمكّن بما أستخلصه منها، من درءِ خطر محتّم أو ستر فضيحة واقعة! فقلت لها: لقد وعدتني يوم أن باغتُّك وإميل بك في دار المصلحة أن تنقطعي عن زيارة ذلك البيت ما دام البك فيه وحده. وها إني أرى أنك لم تفي بهذا الوعد، بل كثر ترددك عليه حتى إنك لا تكادين ترين إلّا فيه!

وبدلًا من أن تجيبني أخذ الدمع يتدفق من عينيها، وأجهشت في البكاء، وألقت برأسها على قدمي وأخذت تصيح:

أنقدني يا أبت أنقذني! إني أكاد أُجنّ! إني أكاد أموت! قم فخذني إلى بئر خَرِبَة فألقني فيها وخلّصني من العار! لقد ضللت! لقد وقعت!

كانت تقول ذلك بصوتٍ مرتفع وكأنها قد جُنّت، فخفت أن يسمعها أحد فأسكتُّها ورددت الباب. وأطرقت لا أدري ماذا أقول ولا ما أفعل. ثم عادت إلى بكائها وقالت:

إما أن تسترني بقتلي أو تتدبّر طريقة لإنقاذي مما أنا فيه! إنك تحبني وتحب زوجي! وإنك كبير القلب طيّب السريرة! وأنت الوحيد الذي نفذ ببصره وبصيرته إلى قلبي فوقف على سرّي! فلمن أذهب إن لم آتِ إليك وليس لي أب ولا أُم ولا قريب ولا مُعين غيرك! أنقذني أنقذني!

أذابت قلبي بهذه الكلمات فزال غضبي وهدأت أعصابي وقلت لها: يا بنيّة! لقد وقفت على سرّك وعرفت مكنون قلبك! وإني أعدك أمام الله بكتمانه حتى الموت، إذا وعدت أنت أن تقطعي كل علاقة لأميل في قلبك! فصاحت:

لا يا والدي! الأمر أفظع من هذا والفضيحة أعظم! لقد قطع إميل هذه العلاقة بعد أن أودعني منه شيئًا لا فراق عنه إلّا بالموت! فصحت بها:

ويلك! أأَنتِ حامل؟! قالت:

نعم نعم. حملت منه بعد شهرين من سفر زوجي! فأنا حامل منذ أربعة أشهر. وقد بدأ الحمل يظهر للناس، وأخاف نساء أهل القرية وتطفلهّن فما العمل؟!

فأخذتني الحيرة، وطلبت إليها أن تخرج وتتركني أفكر في هذه المصيبة على أن تمرّ عليّ بالغد، لعلّ الله يهديني إلى طريقة تنقذها من هذه الفضيحة!

وجاءت زينب في صباح الغد! ولم تكن هي زينب التي عرفتها قبلًا! ذهبت نضارة ذاك الوجه! وامَّحى لمعان تلك العين! وهلهلت أركان ذلك الجسم الأنيق المنتصب! واختطف ذلك اللون الوردي! فأخذتني الشفقة عليها، وتحقّقت أن المسكينة تقدر خطيئتها وتعرف حقيقة ما وصلت إليه من السفالة!

وكان اللـه قـد فتـح عـليّ فألهمنـي رأيًـا تحققـت أنـه نعـم الـرأي لـدرءِ افتضـاح هـذه المـرأة الضالّـة! فقلـت لهـا:

يـا بنيّـة! ارفعـي عـن نفسـك هـذه الكآبـة! وهـدّئي أعصابـك المضطربـة، وتظاهـري بنشـاط عـوّدت عليـه جاراتـك، وأعلنـي لنسـاء القريـة أنـك حامل منـذ سـتة أشـهر لا أربعـة، أي منـذ سـفر زوجـك واستشـهدي بي عـلى صحـة ذلـك، فـإذا مـا سُـئلت فسـأقول، مسـتغفرًا ربي عـلى مـا ارتكـب مـن إثـم الكـذب، أنـك بعـد فـراق زوجـك بمـدة قصـيرة، أشـهدتني، بصفتـي أكـبر أهـل القريـة سـنًّا وصديـق زوجـك الصـادق، إنـك حملـت تـوًّا بعـد فراقـه، وأنـك ذكـرتي لي ذلـك إشـفاقًا عـلى سـمعتك وسـمعة زوجـك مـن أقاويـل النـاس، فـإذا طالـت مـدَّة الحمـل، استشـهدت لأهـل القريـة بحـوادث جمّـة، كان الحمـل فيهـا أكـثر مـن تسـعة أشـهر.

فلـم أكـد أُتـمّ سرد هـذا الـرأي حتـى ألقـت بنفسـها عـلى يـديّ وقدمـيّ تقبلهـا وتسـتدعي اللـه لي.

وكان ذلـك. ورجعـت زينـب إلى سـابق نشـاطها ونضـارة وجههـا وأعلنـت في القريـة أنهـا حامـل، وتسـاءل النـاس عـن هـذا الحمـل، فأعلنـت شـهادتي، وانقطعـت الألسـنة عـن الـكلام. وقلّـت زيـارات أميـل بـك إلى القريـة، وعـاد إلى طبيعتـه الأولى في زياراتـه القليلـة يـسيء إلى هـذا ويشـتم ذاك! ويتهـدّد ويتوعّـد!

وشـاءت الصـدف أن تلـدَ زينـب بعـد ورود نعـي زوجهـا وفي يـومٍ كان فيـه إميـل بـك موجـودًا في القريـة. وقـد سرى إليـه خـبر ولادتهـا بعـد حمـل دامَ

أحـد عـشر شـهرًا. وتحقـق أن المولـودة ابنتـه عـلى فـراش غـيره! فلـم يكـترث لذلـك، ولا هزّتـه عاطفـة أبويّـة، ولا أخذتـه شـفقة إنسـانية!

ورأيـت أن أُبـيّن لـه حقيقـة أمـر هـذه الطفلـة، لا سـيّما بعـد نعـي زوجهـا لعلّـه يجـد في نفسـه عاطفـة لمواسـاتها وإسـعافي في تربيـة ابنتـه بـدون علـم أحـد! ففاتحتـه بالأمـر وبـدل أن يشـكرني عـلى مـا فعلـت، أرغـى وأزبـد وصـاحَ قائـلًا:

ومـاذا تريـد منّـي، إنهـا هـي التـي أغوتنـي! وأنسـتني نفـسي ومقامـي وزوجتـي وولـدي. ثـم متـى كان الرجـال يُحافظـون عـلى أنفسـهم في مخالطـة النسـاء دونهـن. إن عـلى المـرأة أن تحافـظ عـلى شرفهـا إن كان لهـا شرف تبغـي حفظـه! ثـم طـردني. ولـولا خـوف الفضيحـة لأخرجنـي وإيّاهـا مـن القريـة مـن تلـك السـاعة.

مـرّت عـلى تلـك الحـوادث سـنوات كنـتُ أشـعر خلالهـا بميـل طفيـف مـن إميـل نحـوي وابتعـاده عـن محاكسـتي فـكان يتسـاهل معـي في قسـم حصتـه، ويلبّـي مطالبـي البسـيطة، وذلـك بعـد أن تحقـق أني كفلـت ابنتـه مـع أمهـا وآويتهـما لـديّ. وقـد أسـمينا الطفلـة «غريبـة» لولادتهـا في غربـة أبيهـا الوهمـي وبُعدهـا عـن أبيهـا الحقيقـي، غـير أنـه لم يطـق رؤيتهـا مـرّة واحـدة ولا سُـئل عنهـا يومًـا مـن الأيّـام.

فلـما كانـت حادثـة بيـع القريـة مـن اليهـود، ووقـوف زينـب حاملـة طفلتهـا وطفلتـه في وجهـه داهمـه جُـبن ظاهـر مـن مواجهـة الفضيحـة إذ تحقّـق مـن نظـرات زينـب أن الوقـت أزِفَ لإعـلان سرهـا، فـكان يبتعـد عنهـا كلـما

انبرت إليه حتى ضاق بها ذَرعًا، فلطمها وألقى بابنتها بعيدًا عنها، فتوترّت أعصابها، وتصلّبت عضلاتها، واضطرّب قلبها وكان قد أنهكته هذه الحوادث، وأعيته صروف ذلك الحب الآثم، فلم يحتمل تلك الصدمة، فقطعت نياطه وهي تكاد تنشب فيه مخالب لبوة ثائرة!

أما الفتاة فقد داهمتها على إثر هذه الفاجعة حُمّى شديدة تقلّبت فيها عشرين يومًا بين الموت والحياة، وهي تهدر بهذيان مستمر لا يتبدّل ولا يتغيّر «أُمّي! ماتت! ماتت!» فلما منّ الله عليها بالشفاء محت تلك الحادثة من تلافيف دماغها وكان ذلك من حُسن حظها.

هذا هو السرّ يا بُنيّ! فاطوِهِ في صدرك إلى أن يأذن الله بنشره! أدهشني هذا السر. وازداد قلبي ارتباطًا بتلك الصغيرة التي كتب عليها الشقاء من قبل أن ترى ظلام هذا العالم. وأقلت على الشيخ امتدح خصاله، وأثنى على حكمته في درءِ المخاطر عن هذه الفتاة المسكينة خطوة خطوة. ثم ودّعته وانصرفت بعد أن تعاقدنا على العمل لخيرها والسهر على مصالحها.

ركبت السيارة متجهًا إلى القدس وقد احتكر ذلك السرّ وتفاصيله عقلي، فلم أفكّر إلّا به، ولم ترعبني إلّا حوادثه. وإذن فمحمد الواسطي لم يخلّف! وغريبة هي ابنة إميل بك المدير سِفاحًا! وزينب، تلك المرأة الطيبة الخجولة الذكية كانت فريسة ذلك الغرّ إميل! تمتّع بها أيّامًا حتى إذا ظهر عليها الحمل منه وأقبلت على الفضيحة، وأصبحت في حاجة إلى إسعافه، نبذها نبذ النواة!

وهـذه الابنـة الصغـيرة الجميلـة كانـت شـؤمًا عـلى أُمّهـا. وعـلى زوج أُمّهـا إذ عنـد وجودهـا انعـدم؟ وعـلى والدهـا الـذي تـبرّأ منهـا وأنكرهـا وبـاع قريتـه وبـذر أموالـه ووقـع تحـت طائلـة الديـون! وعـلى قريتهـا إذ بيعـت مـن اليهـود وتشـتّت أهلهـا أولًا! وأبادهـم الجـوع والحرمـان أخـيرًا!

مـا أقـسى هـذه الدنيـا! كيـف ربطـت هـذه الحـوادث المريـرة المظلمـة بتلـك الفتـاة الباهـرة في جمالهـا، البريئـة في نظراتهـا، الطيبـة في سريرتهـا!

نعـم هـذه ابنـة إميـل بـك المديـر، زعيـم عائلـة مسـيحية معروفـة بحيفـا في مدرسـة الأيتـام الإسـلامية بالقـدس، بصفتهـا ابنـة مسـلم مستشـهد ومسـلمة مسـحوقة، جنـى عليهـا إميـل بـك بقسـوته، يـوم أن بـاعَ وطنـه ومجـده ومسـتقبل ولـده ببيعـه قريـة سَـتّة!

اليتيمةُ

اليوم صباح الثلاثاء. الشهر تموز. السنة ١٩٢٩.

وقفت فتاة بسيطة الملبس، حسنة الطلعة، جميلة الوجه في نافذة إحدى غرف السيّدات بالدرجة الثالثة في قطار اللد ـ حيفا وهو ينهب الأرض في سهول واسعة متجهًا نحو الشمال. وكانت تتلقّى هواء البحر العليل بابتسامة وشوق، وعبير السهول بلهفة وغبطة، وتمدّ طرفها بعيدًا إلى الأفق تتمتع بما يتقلّب أمامها من مناظر خلّابة، وتتلع عنقها كيما ترى ما هو بعد ذلك من مناظر حسنة وأسرار طبيعية جديدة. وترغب في أن تتعجّل المشاهد لتقابل فيما بينها فتعرف أيُّها أشدّ وقعًا في النفس، وأروع في القلب، وأقرّ للعين. فيبدو للناظر أنها قليلة الخبرة في الأسفار. وأنها تشعر بلذّة وسعادة في انطلاقها داخل ذلك السهم الهائل.

وطال وقوفها وهي تتأمّل في الأفق وفي تلك الصور التي تتبدّل أمامها بسرعة البرق، حتى شعرت بشيءٍ من الدوار. فرفعت يدها على جبينها وقالت «دخت!» وجلست.

قدٌّ ممشوق، ولونٌ أبيض ممزوج بحمرة تنمّ عن صحة وافرة، وعينان نجلاوان تحملان إلى الناظر شتّى المعاني. فهي ذكيّة الفؤاد، نقيّة الضمير، طاهرة السريرة، وفوق ذلك فهي ذات مجموعة من الصفات القويمة النبيلة التي تطلق عليها اسم «الشخصية» فلا يراها الناظر إلّا ويشعر لها في نفسه محبةً ومهابةً وإعجابًا.

جلست مأخوذة بمحاسن الشاطئ وجمال السهول المرصّعة بجنائن البرتقال والليمون، تفكر في الدنيا وما فيها من هناء وسعادة!

ما أسعد أولئك الذين يسيرون في الحقول وراء مواشيهم! بل ما ألذّ الانتقال في تلك الفُلك الصغيرة فوق ذلك اليمّ الأزرق! إنها مناظر جميلة تجلب السرور والغبطة إلى قلوب أصحابها وساكنيها! ومن هم هؤلاء؟ إنما هم من الناس. رجال ونساء وعيالهم. كل له بيته وكل له عائلته وأهله ومن يحبه ويواسيه! أما هي؟ يتيمة لا أم ولا أب! ولا أخ ولا أخت! ما أقسى اليتم! لماذا خلق الله اليتم في هذه الدنيا الجميلة؟!

ترقرق الدمع في عينيها الجميلتين وارتجفت شفتاها، وأخذ صدرها يعلو وينخفض. ولكنها نفضت عن فكرها تلك الذكرى الأليمة، ونهضت واقفة مرة أخرى أمام نافذة العربة لتتمتع بشعورها السابق، فلم تعد ترى ذلك الجَمال حقيقة مرة واحدة – هي يتمها! نعم لها كفيل ووليّ يُقال له الحويطي يقطن جنين، ولكنه شيخٌ كبيرٌ وفقير! كان يزورها في مدرسة الأيتام مرة في السنة ويواسيها ويضمّها إلى صدره كما يفعل الآخرون مع بناتهم. ولكنه لم يزرها هذه السنة، لأنه ضعف وانقطع عن الحركة.

وكان يزورها في المدرسة، أيضًا، رجلان أحدهما من القدس يقول إنه صديق الحويطي، والآخر من حيفا ويُدعى إميل بك ويقول إنه كان شريك والدها في قرية سَتَة. ولكن المدرسة منعت مقابلتها لهذين

الرجلين لأنهما ليسا من أقاربها ولأنها تحجّبت فكانا يأتيان للاستعلام عنها من مدير المدرس، ويقدمان لها بعض الهدايا.

ولكن لها ابن عمّ في حيفا، أخبرها الحويطي أنه يعطف عليها كأخته. وأن أُمّه تحبها حبًّا جمًّا. ولقد أذن لها الحويطي أن تمضي عطلة هذه السنة عندهما بحيفا. فهي إذن لها قريب تعتمد عليه وتقضي لديه العطلة الكبرى كغيرها من بنات المدرسة! ولكن من هو ابن عمها هذا وهل سوف يكرمها ويغمرها ووالدته بحنانهما، أو يمقتانها ويعذبانها ويُرجعانها إلى المدرسة قبل انتهاء العطلة، كما جرى لصديقتها فاطمة في العام الماضي؟!

دخل مأمور القطار إلى الغرفة وطلب إليها تسليم البطاقة وقال:

المحطة الآتية هي حيفا.

هل هي بعيدة من هنا؟

نصف ساعة.

قامت غريبة محمد الواسطي إلى حقيبتها فوضعتها على ركبتها استعدادًا للنزول، ولكن أين؟! تُرى هل يلاقيها ابن عمها على المحطة، هكذا قال لها مدير المدرسة عندما أركبها القطار في القدس. فكيف يلاقيها؟ أيضمها بين ذراعيه كما يفعل الحويطي عند زيارتها ويغمر وجهها بقبلاته؟ لا لا هذا لا يجوز! ولكنه سيركض إليها ويأخذها من يدها، ووجهه يطفح بِشْرًا بقدومها وحبورًا بملاقاتها! ويقول لها أنتِ

أختـي! لـك مـا لي وعليـك مـا عـليّ!... ولكـن مـن يـدري لعلّـه يُقابلهـا بفتـور! أو يرسـل إليهـا مـن يدلّهـا إلى بيتـه. لا سـيما وهـو الآن كاتـب في عنابـر السـكة لـه خطـره ومقامـه بـين النـاس وهـي يتيمـة فقـيرة!

عـاد الدمـع إلى مآقيهـا وعـادت تقاومـه بـإرادة قويـة! ودوّت صفّـارة القطـار وعـلا ضجيـج الملاقـين والحمّالـين والسـوّاقين. والـكل يركـض مـن هنـا وهنـاك. وكان عنـاق وكانـت قبـلات وكانـت دمـوع... وأخـذت هـي تتلفّـت يُمنـةً ويُسرةً علّها تـرى شـخصًا يقـول لهـا: هأنـذا في انتظـارك. فلـم تـرَ أحـدًا!

نزلـت مـن القطـار ووقفـت عـلى رصيـف المحطّـة، تائهـة الفكـر زائغـة البـصر وسـط ذلـك الزحـام! مـاذا تفعـل؟ أتذهـب إلى عنابـر السـكة؟ وأيـن هـي؟

وكان في هـذه الأثنـاء شـابٌّ عظيـمُ البنيـة طويـل القامـة مفتـول العضـل حسـن الخلقـة، يتلفّـت بـين المسـافرين، وكأنـه يتوقـع ملاقـاة أحـد. وقـد مـرّ بهـذه الفتـاة مـرارًا ولكـن جمالهـا وهيبتهـا وشـخصيتها كانـت توحـي إليـه أنهـا ليسـت بضالّتـه! إنمـا تلـك فتـاة قرويـة يتيمـة! وهـذه سـيدة توحـي إليـك هيئتهـا أنهـا مـن أكابـر النـاس. وقـد رأتـه مـرارًا يمـرُّ مـن أمامهـا مُطأطـئَ الـرأس خافـض النظـر فظنّتـه مـن مسـتخدمي المحطـة.

وراح الشـاب يـذرع الرصيـف بخطواتـه الواسـعة، وينظـر مـن نوافـذ عربـات القطـار، فـلا يـرى أحـدًا... وأخـيراً أجـال نظـره في الرصيـف فلـم يـرَ غـير تلـك السـيدة فهـم بـأن يتقـدم إليهـا فيسـألها عـن يتيمـة جـاءت مـن

القـدس في ذلـك القطـار، فتهيّـب حتـى مـن إلقـاء هـذا السـؤال. ولكنـه رآهـا تتقـدم إليـه بنظـر ثابـت وتسـأله:

ـ هل تعرف يا سيدي أين هي عنابر السكة الحجازية؟

فاحمـرّ وجـه ذلـك المسـكين وظـنّ أن هـذه السـيدة تنقـل إليـه خـبرًا سـيئًا عـن ابنـة عمّـه فقـال:

- نعم يا سيّدتي. بل أنا أشـتغل في عنابر السكّة.

- وهل تعرف كاتباً هناك يُدعى أحمد الواسـطي؟

- أنا أحمد!

- أنا غريبة!

فأمسـكها الشـاب بكلتـا يديـه، وكأنـه وجـد ضالّتـه فـلا يطيـق إفلاتهـا! وكأنـه رأى فيهـا أكـثر مـما توقـع! وشـعر نحوهـا بغـير مـا فكـر! فأخـذ العـرق يتصبّـب مـن جبينـه وقـال متلعثـمًا:

- اعذريني! اعذريني يـا غريبـة! ظننتـك مـن كبـار النـاس، فتهيّبـت منـك! كنـت أظـنّ أنـك صغـيرة! لم أنتظـر أن تكـوني هكـذا! عفـوًا أريـد أن أقـول إنهـا أوقـل مقابلـة لنـا فذهلـت لشـدّة فرحـي بـك! لعـلّي لم أسـئ إليـك! هـل أنـت مـسرورة؟

فنظـرت إليـه بعطـفٍ وحنـان وكأنهـا قـرأت في عينـي هـذا الشـاب جميـع صفاتـه وأحسّـت كأنهـا تعرفـه مـن قديـم الزمـن! فأجابتـه بـأن ألقـت

رأسها على صدره وأخذت تذرف الدمع مدرارًا! وشعرت في تلك البرهة أنها من الناس، وأن لها أقارب يرعونها بعنايتهم ويحوطونها بمحبتهم! وغمرتها سعادة هذه اللحظة فلم تشعر إلّا وهو ينزلها من سيارة إلى بيت بسيط صغير وينادي «أمي! أمي! هذه أختي.» فخرجت من البيت امرأة نصف ضاحكة الوجه، لا هي بالقروية ولا الحضرية. وقبل أن ترى الفتاة أخذت تقول للشاب «لا لا تقل أختي يا بُنيّ! بل قل ابنة عمّي!». فعلا الاحمرار وجه الشاب لأنه فهم ما تعنيه والدته بذلك. أما الفتاة فارتمت في أحضان امرأة عمها! فكست هذه وجهها بقبلات ليس لها آخر. وهي كلما نظرت إليها ازدادت لها محبة وبها إعجابًا، ونسيت البيت والطعام على النار، حتى احترق، وتصاعدت رائحته محترقًا، فنبّهها ابنها إلى ذلك، فضحك الثلاثة وقاموا فرِحين، يعدون المائدة لأكل طبخة محروقة!

العُطلة

ما أجمل الحكمة والرأي الصائب يصدران عن تفكير رؤوس يكسوها الشيب ويحوطها الوقار كرأس ذلك الشيخ الحويطي. رأى أن غريبة سوف تُكمل دراستها في مدرسة الأيتام سنة ١٩٣٠، فألحّ عليها بأن تقضي آخر عطلة صيفية لها في بيت ابن عمها أحمد بحيفا، كي تُعاشره ويُعاشرها، وتتعرف إلى أطباعه ويتعرف على أخلاقها، فيتحابّان ويتعاقدان على الزواج بعد انتهاء دراستها، فلا تخرج من المدرسة إلّا إلى مستقرها وبيت خطيبها، وعند ذلك يشعر بأن الوقر زال عن كاهله، فيموت قرير العين، ناعم البال. وكتب بذلك صراحةً «إلى أحمد، ولكنه لم يعلم غريبة بما رتب لتيقنه بأنها ستملأ عين أحمد، ولم يشأ أن يفرض إرادته في هذا الأمر خشية أن تتقيّد بما لا تحب. وقصد بتصريحه لأحمد أن يقول له «هذه فرصتك فانتهزها إن كنتَ فاعلاً.» وشعر الشاب بذلك بعد أن عرف غريبة ورأى حسنها الباهر، وحمد للشيخ صنعه، وأحسّ أن الشيخ قد فتح له باب السعادة وقال له «دونك فاصعد إليه.» غير أنه بقي تحت تأثير ذلك الشعور الذي أحسّ به عندما مرّ بها ثلاثًا وهي واقفة على الرصيف في محطة حيفا يوم قدومها من القدس. وها قد مرّ عليها أسبوعان في بيته، وتحت ظلّه، وهو لا يزال يغضّ من طرفه تلقاء نظرها الحاد، ويتطلع إليها كما يتطلع الوضيع إلى الرفيع، ويشعر أن هذه الفتاة أسمى منه خلقاً وخُلقاً، وأنه أدنى من أن ينال منها مأربًا.

فإذا ما أخذ يفكر في أمرها ويزن الأمور بميزان العقل، شعر أنها في

يـده وتحـت كنفـه وأنـه لهـا وهـي لـه، حتـى إذا رفـع رأسـه إليهـا وتلقّـى سـهام نظراتهـا، انقلـب فـإذا هـو في الحضيـض، وهـي ترنـو إليـه مـن عُلـوٍّ شـاهقٍ والبـون شاسـع والشـقة بعيـدة. ولمـاذا هـذا الشـعور؟ أَلِأَنَّـه فقـير لا يملـك سـوى مرتّبـه الـذي لا يزيـد عـلى تسـعة جنيهـات في الشـهر؟ لا. إنهـا أفقـر منـه، بـل إنهـا لم تعـرف إلّا الفقـر المدقـع، واليتـم والبُـؤس والحرمـان! وإن مثـل هـذا المرتّـب لم يحلـم بـه أحـد مـن أمثالـه وأمثالهـا. وإنمـا أنالتـه إيّـاه صفـات مؤهلـة وحـظ حسـن، لا يتـأتّى لـكل النـاس. لقـد كان عاملًا فمراقبًـا ثـم دخـل المكتـب في زمـرة الكتّـاب، بعـد أن أتقـن القـراءة والكتابـة عـلى معلّـم خـاص، وهـذا نـادر لأمثالـه!

فهـل ذلـك لأنهـا أحيطـت بحـوادث أليمـة أثّـرت في نفسـه منـذ صغـره؟ لا! فذلـك إنمـا يزيـده شـعورًا بسـهولة الاسـتيلاء عليهـا والأخـذ بيدهـا وحمايتهـا، وهـو يشـعر أن في ذراعـه المفتـول وقلبـه المفتـون الكفـاءة للقيـام بذلـك. إذن مـاذا؟ إنـه يشـعر أنـه غـير كفـؤ لهـا! إن ذلـك الجـمال الباهـر، وتلـك الشـخصية الفـذّة إنمـا تتطلـب شـخصية مثلهـا ليحصـل التكافـؤ ويتـمّ التـوازن!

ولكنـه لم يقنـط، بـل كان يـرى منهـا تشـجيعًا عـلى المـضيّ في حبـه، فهـي لا تخيِّـب لـه رجـاء، ولا تألـو جهـدًا في إرضائـه واسـتجلاب الراحـة لنفسـه، وقـد اسـتلمت مـن أمـه جميـع ثيابـه وانهالـت عليهـا رفيًـا وكيًّـا وطيًّـا. فـإذا مـا جـاء في الأصيـل مـن عملـه، منهـوك القـوى مكـدود الفكـر، هيـأت لـه الأسـباب للسـير بجانبهـا عـلى شـاطئ البحـر، وفي سـفوح الكرمـل الجميلـة، فيلامـس السـعادة بيـده، إذ يشـعر أنهـا لـه!

ولم يكـن أحمـد بالغبـي ولا بالخامـل، بـل كان ذكي الفـؤاد، صائـب الـرأي. ولكنـه ابتـليَ بشـدة الإحسـاس، فهـو إذا طلـب أمـرًا قـدر لنفسـه الإخفـاق حتـى ينالـه! وإذا قـام بعمـل قـدر لـه الفشـل حتـى يـأتي غـيره ويطريـه لـه! وإذا وقـف بـين النـاس توهّـم أن ألـوفَ الأعـين تتجـه إليـه وتحـصي عليـه أنفاسـه وتلاحـظ كل حركاتـه! ولذلـك كـره مخالطـة النـاس وانـزوى في عملـه وبيتـه.

فلـما جـاءت ابنـة عمّـه وأخـذ الهيـام بهـا يداخـل قلبـه، ورأى منهـا مـا بهـر عقلـه وأخـذ لبّـه، ازدادت فيـه تلـك الخصلـة المضنيـة المملّـة، عـلى غـير مـا قـدر الحويطـي إذ ظـنّ أن اجتماعهـما يزيـل الكلفـة، ويعدّهـما للـزواج!

وهكـذا مـرت الأيـام، وأحمـد يـزداد بهـا افتنانًـا وهيامًـا، وهـي لا تشـعر منـه بميـل غـير ميـل الأخ إلى أختـه، فهـو كثـير الاحـترام والكلفـة يعمـل جهـده لـكي يهيـئ لهـا جميـع أسـباب الراحـة والـسرور!

الثورة

في أواخر شهر أغسطس (آب) ولم يبق من عطلتها غير أسبوعين، اضطربت فلسطين من أقصاها إلى أقصاها بثورة عمومية، كانت وليدة مظالم الحكم الجائر القائم في البلاد، الذي لم يروِ التاريخ له مثيلًا في شدته وظلمه! فاشتعلت شرارتها في القدس وعمّت البلاد في مدة لا تتجاوز الثلاثة أيام، وساد الرعب والقلق في كل مكان.

وانزوت غريبة في البيت مع امرأة عمها، وكانتا في كل مساء تقفان في باب البيت الخارجي، وهما على أحرّ من الجمر، حتى يرجع أحمد سالما، فتشعران بالطمأنينة والارتياح، وكان هو يشعر بهذا القلق الذي تولَّد في قلبيهما، فلم يكن ليتلكّأ في الرجوع توًّا بعد انتهاء العمل.

وكان البيت في منطقة سكانها خليط من العرب واليهود. وكانت ساحة لمواقع فردية وأخرى عمومية في كل يومٍ من أيام الثورة. ومرّ أحمد في اليوم الثالث لبدء الاضطرابات في حيفا في الأصيل مسرعًا إلى بيته بدون أن ينظر يُمنةً ولا يُسرةً. ولكنَّ صوتًا أليمًا مستغيثًا دوّى في أذنه بألفاظ عربية صريحة. فلم يطق أن تقدم نحو الصوت، فإذا به يرى ثلاثة من شبّان اليهود يهاجمون شابًّا عربيًّا، أنيق الملبس وسيم الخلقة وقد كادوا يفتكون به. فحمل عليهم حملة جبّار، وفرّقهم عن فريستهم. ففرّوا وأخذوا يُطلقون عليه النار من مسدّساتهم من بعيد، فلم يجبن بل أمسك بيد المستغيث وأطلق لساقه الريح خوف الإصابة بالرصاص.

وشاءت الأقدار أن يُصاب أحمد برصاصة في فخذه، فأحسّ بالدم يتدفق

مـن جرحـه ولكنـه ثابـر عـلى عـدوه ممسـكًا بيـد الشـاب المنهـوك القـوى، حتـى وصـلا إلى مـكان يقيهـم نـيران العـدو. وعندهـا شـعر بـالألم فهبـط في مـكان خائـر القـوى أصفـر الوجـه. وأقبـل عليـه ذلـك الشـاب يشـكره عـلى إنقـاذه، ويعتـذر عـمّا سـبّب لـه مـن إزعـاج، فلـمّا رأى الـدم ينضـح مـن فـوق ثيابـه اضطـرب، وأخذتـه هـزّة كريمـة، فشـقّ قميصـه وأخـذ يُضمّـد جـراح منقـذه بعنايـة وإشـفاق. ثـم سـاعده عـلى السـير قليـلًا حتـى أقعـده في مـكان أمـين، وانطلـق كالسـهم النافـذ ثـم عـاد يقتـاد سـيارة أخـذ أحمـد إليهـا واعتـلى مكانـه يريـد الذهـاب إلى المستشـفى. غـير أن أحمـد رجـاه أن يوصلـه إلى بيتـه، ويطلـب لـه طبيبًـا يُضمّـد جراحـه، ويعطيـه تقريـر مـرض عـادي خشـية أن تعـرف السـلطة بجرحـه فتتهمـه بالاشـتراك في الثـورة، وتطـرده مـن العمـل. لا سـيّما وأكثريـة موظفـي السـكة الحجازيـة الذيـن بيدهـم الحـلّ والعقـد مـن اليهـود والمغتصبـين.

فلـما أقبـل الشـاب بسـيارته نحـو البيـت الـذي أشـار إليـه أحمـد، وجـد والدتـه وغريبـة في انتظـاره خارجًـا وهـما عـلى أحـرّ مـن الجمـر، فنـزل مـن السـيارة وتقـدم نحوهـما فقـال:

- لا تخافـا إنـه جـرح بسـيط خارجـي! فاسـمحا لي أن أسـاعدكما عـلى حملـه إلى فراشـه وأرجـع لاسـتدعاء الطبيـب.

وصاحـت المـرأة ملهوفـة: ولـدي! ولـدي! أمـا غريبـة فقـد أسرعـت إلى السـيارة وأمسـكت بيـد أحمـد وقالـت بصـوتٍ عـذبٍ متـألم حنـون:

- هل تتألم!

- لا لا ليس الأمر هامًّا. جرح بسيط خارجي. ولكني خسرت بعض دمي وتعبت. أعطني يدك لأقوم.

فلمّا أحسّ بيدها في يده شعر بأنّ قواه قد عادت إليه، فنهض من السيارة ووالدته تصيح «ولدي ولدي! قتلوه! ذبحوه!»وأسرع الشاب إلى أحمد وساعده مع غريبة على الدخول إلى البيت والاستلقاء على سريره، ثم اندفع في سيارته، وعاد بعد برهة بطبيب صديق له.

فحص الطبيب الجرح بعناية ثم التفت إلى الوالدة وقال:

- أهنئك يا سيدتي بسلامة ولدك! الجرح بسيط! والعظم سليم وأنا أضمن الشفاء في مدة أسبوع إن شاء الله! إن عليه حُمّى خفيفة من أثر الصدمة لا تلبث أن تزول. وهذا يساعد على ما طلبه إبراهيم بك من كتمان الأمر. وإعطاء تقرير بأنه مُصاب بالحُمّى، ويحتاج إلى ملازمة الفراش مدة أسبوع. سأُضمّد جراحه ثم أُرسل بعض العلاجات مع إبراهيم بك.

فشكرته الأم على هذه البُشرى. وبعد أن أتمّ تضميد الجرح خرج مع الشاب إبراهيم بك.

والآن وقد تبدّد ذهول والدته، وهدأ بالها، أقبلت عليه تسأله عمّا أصابه. فأعلمها بما كان. وغضبت الوالدة لإلقاء ابنها نفسه في المهالك مرضاةً للناس! أما غريبة فكانت تراقبه وتستمع إلى أقواله بحنان رصين، وقد بدت على وجهها ابتسامة الفخار والإعجاب!

فلـمّا عـاد إبراهيـم بـك بالعـلاج كان أحمـد قـد انتعـش قليـلًا، وارتسـمت عـلى فمـه ابتسـامة الـرضى بمـا فعـل. ووجـد الشـاب الفرصـة سـانحة لشـكره فتقـدم إلى والدتـه وقـال بـأدب جـمّ:

- إني يـا سـيدتي أقـدم شـكري القلبـي لابنـك الكريـم، فإنـه قـد أنقـذ الليلـة حيـاتي، ومنـح لي عمـرًا جديـدًا، ولقـد وددت مـن صميـم قلبـي أن أكـون المصـاب دونـه، ولكـن شـاءت الأقـدار أن يكـون هكـذا.

- فأطرقـت الوالـدة ولم تجـب بـشيء! ورأت غريبـة أن الواجـب يقـضي بمقابلـة ذلـك اللطـف بمثلـه، فـإن لم تفعـل امـرأة عمهـا وقـع عليهـا ذلـك الواجـب فانـبرت إليـه وقالـت بلطـفٍ وصـوتٍ عـذب:

- لقـد قـام أحمـد يـا سـيدي بواجـبٍ وطنـيٍّ وإنسـانيٍّ، وإننـا نعتقـد أنـه لـو كان المسـتغيث لمـا تأخّـرت أنـت عـن إغاثتـه! وكفـى أنـك قمـت بخدمتـه بعـد الإصابـة خـير قيـام! فشـكرًا لـك!

فوضـع أحمـد يـده عـلى يدهـا وضغـط عليهـا في إشـارة لاستحسـانه لمـا قالـت. أمـا إبراهيـم بـك فقـد نفـذت هـذه الكلـمات وذلـك الصـوت العـذب إلى صميـم قلبـه، فأخـذ يتلعثـم لا يـدري مـاذا يقـول، ثـم اسـتأذن شـاكرًا وخـرج.

اعتـلى إبراهيـم سـيارته وسـار بهـا عـلى غـير هـدى، فقـد وقـع في سـاعة واحـدة تحـت تأثـير صدمـات ثـلاث هـزّت مجموعـة أعصابـه. فلقـد رأى المـوت رأي العـين ثـم أنقـذ. ورأى منقـذوه في مخالـب المـوت، ثـم مـا عتـم

أن علـم أن الخطـب هـيِّن. ثـم رأى مـلاكًا طاهـرًا يكلمـه بصـوتٍ نفـذ إلى قلبـه وأشـعل فيـه نـارًا!

نـسي الخطـر الـذي كان يحيـط بـه، ونـسي ألمـه الشـديد لإصابـة منقـذه واسـتولت تلـك الكلـمات العذبـة التـي خرجـت مـن ذلـك الفـم الصغـير عـلى جميـع حواسـه، فأيـن يذهـب؟ إلى البيـت! إلى فراشـه! هنـاك يعيـد عـلى نفسـه تلـك الحـوادث، ويفكّـر بمـا رأى ومـا سـمع!

إبراهيم بك المدير

هبط المهندس إبراهيم بك المدير من سيارته وقرع جرس بيت صغير أنيق، تحيط به جنينة من الورد المنتقى. ففتح له في الحال. وأقبل عليه والده إميل بك وقد خطّ الشيب فوديه، وانحنى ظهره، وبان أنه سلخ الستين من عمره مع أنه لم يتجاوز الخمسين. فقال بلهفة:

- ولدي! أكل هذه العاقة في مثل هذه الأيام؟!

- أشكر الله يا والدي أن أوصلني إليك محمولًا على قدميّ وليس على نقالة الجرحى والموتى!

- يا ربّاه مالك أصفر الوجه؟ وليس عليك قميص! وهذه كدمات زرقاء على وجهك! هل أصبت؟ هل أصبت؟

- لا تضطرب يا والدي! قلت لك إني أتيتك على رجليّ وبسيارتي، وإذن فلم أُصب! أما إذا كنت تظنّ أننا نحن الشبان نرى ما يجري في هذه البلاد، ونتحمّل أعباء هذه المظالم، ولا نتعرض لخطر في مثل هذا اليوم، فإنك واهم!

- ولكن يا بُنيّ! اتركني من فلسفتك الوطنية وقل لي هل أصبت؟

- لا!

- أَحَدَثت لك واقعة؟

- نعم!

- وهربت؟

- لا بل أُنقذت!

- ومـن أنقـذك؟ لا بـدّ أن أشـكره! لا بـدّ أن أُقبّـل اليـد التـي أنقذتـك يـا ولـدي وأُكرّمهـا!

- أنقذني كاتب في عنابر السـكّة!

- وما اسمه؟

- لقد قال للطبيب أن اسـمه أحمد الواسـطي!

- مـاذا تقـول؟ أحمـد الواسـطي ابـن أخ محمـد حسـن؟ نعـم نعـم إننـي أذكـر! لقـد قالـوا إنـه يشـتغل في عنابـر السـكة!

- قـل لي بـدورك يا والدي، هل عرفـت منقذي؟ فأجاب الأب متلعثمًا.

- نعم!... لا يا ولدي! أقول إنها معرفة بسـيطة مبهمة.

- وكيف تكون مبهمة وأنت تعرف الاسـم ومكان العمل والأقارب!

- نعـم يـا ولـدي، أذكـر أن أحـد مزارعينـا في سَـتّة كان يُدعـى محمـد حسـن الواسـطي وكان لـه ابـن أخٍ في حيفـا.

- وهل كان ذلك يا والدي من ضحايانا في سَـتّة؟!

- ولدي! ولدي!

- عفـوًا يـا والـدي! فأنـت الـذي ذكـرت لي هـذا الاسـم الـذي يهيّـج أعصـابي!

- ولكنك أنت سألتَ

- عذرًا! عذرًا! ثم ماذا؟ هل تعرف شـيئًا؟

- لا لا!

- أبدًا؟

- أبدًا

- هـل عرفت أنّ له أُمًّا؟

- أظـنّ ذلـك. لقـد مـات أبـوه هنـاك في.. في.... نعـم هنـاك وحملتـه أُمّـه إلى بيـتِ خالـه الـذي كان يشـتغل عندئـذٍ في عنابـر السـكّة وعاشـت معـه.

- هـل كان له أخت؟

- لا. لا أذكر!

- وهـل لـه خطيبة أو قريبـة تُدعى غريبة وتقطن في بيته؟

فاضطـرب إميـل بـك عنـد ذكـر هـذا الاسـم أيّ اضطـراب وبانـت الحـيرة في وجهـه وتلعثـم قائـلًا:

- ابنـة عمـه؟ لا ليـس لـه بنـات عـمّ! لا بـل لـه ابنـة عـمّ في القـدس. وليسـت هـي ابنـة عمّـه بالمعنـى الصحيـح! أعنـي إنـه لا يعرفهـا ولا تعرفـه!... فدهـش إبراهيـم مـن هـذا الاضطـراب. وحـدج والـده بنظـرةٍ مريـرةٍ وقـال بصـوتٍ شـديد أَبـح.

- والـدي! أهنـاك سرّ آخـر مـن أسرارنـا في سَـتّة؟! إذا كانـت هنـاك كارثـة أو فضيحـة أو جنايـة مـا فأَنِـر لي طريقـي! إن هـذا الرجـل قـد أنقـذ حيـاتي، فأنـا مديـنٌ لـه بهـا، وسـيبقى صديقًـا لي مـا حييـت. ولكـن قبـل أن أتقـدم إليـه بصداقتـي اكشـف لي الغطـاء إذا كان هنالـك سرّ يمنـع، فإمـا أن أنكّـس رأسي يائسًـا مـن نـزوات شـبابك محترمًـا شـيخوختك وأغـضّ الطـرف عـن معـروف هـذا الرجـل، أو أن أتقـدم إليـه بصداقتـي ومسـاعدتي فـأرضي بذلـك شرفي وضمـيري! قـل يـا والـدي! تكلّـم!

- ولـدي أقسـم لـك أن ليـس هنـاك سرّ مـا، فافعـل مـا تريـد. لا تحمّـل نفسـك مشـقة بسـببي! كفـى مـا تحمّلـت بسـببي مـن ديـون ومشـاكل وإني لم أتـرك لـك شـيئًا غـير مـا يسـوؤك!

- لا لا! لا تقـل ذلـك. لقـد تركـت لي ثـروة لا تنضـب. لقـد أنعمـت عـليّ بـأن علمتنـي فأنـا مديـن لـك بهـذا أولًا وبحبّـك الأبـوي ثانيًـا، ولكـن مـا لنـا ولهـذا. إني تعـب وأريـد أن أنـام.

- ألا تتعشّى!

- سـأطلب عشـاءً في غرفتي إذا وجدت رغبةً في ذلك.

قال هذا وسار إلى غرفته. واستلقى إميل بك المدير على مقعد في إيوانه الصغير وهو حائر الفكر مضطرب البال وقد اضطرمت بين جوانحه الذكر. ما هذه المفاجأة وتلك الصدفة الغريبة! هي سَتّة وأهل سَتّة! يكمنون له في كل منعطف! وينبتون له في كل موضع! ويغارمونه في كل موقف! نعم هي سَتّة! وأهل سَتّة! أين أمواله؟ ذهبت يوم أن باع سَتّة! أنفقها على غطرسته هنا وهناك حتى لم يبقَ منها شيء! أصابها المحاق بدعواتهم السيئة! ثم أهرق نفسه بالديون وباع بيته الفخم الجميل تسديدًا لديونه! وامرأته؟ مسكينة! ذهبت ضحيّة جوره وعسفه! ذوتْ كالزهرة في ربيع الحياة! ولكنها لم تمت إلّا قريرة العين بأنها أرصدت لتعليم ولدها مبلغًا كافيًا من المال فلم تطله يده وأنقذ الولد بتعليمه! وها هو اليوم المهندس المعمار الحاذق. خرّيج جامعة برلين. وحاضن والده بعد إفلاسه! ومسدّد ديونه وحامل جميع مغارمه من مادية وأدبية! وكل ذلك بعد أن باعَ سَتّة من اليهود! والآن ذلك السرّ الدفين! من أتى لينبشه اليوم؟ ومن جاء بغريبة إلى ابن عمّها في حيفا؟ وما هي الصدف التي ألقت بولده في المخاطر، وقادت أحمد لإنقاذه، ثم أوقفت الأخ أمام أخته وجهًا لوجه! ماذا يقول إن عرف؟ وماذا يقول إن علم أن أمها ماتت تحت حوافر جواده وهي تصيح «أمي. أمي!»

نهض الرجل من مكانه وكأن تيارًا كهربائيًّا لامسه وقال «يا للمصيبة! إني أكاد أُجنّ» وسمع عندئذ جرس الكنيسة يقرع فتمتم قائلًا «إلى الكنيسة! إلى الكنيسة!» وفتح الباب وخرج يبتغي تهدئة ضميره

بالصـلاة.

أمـا الابـن فخلـع ثيابـه واغتسـل بمـاء بـارد واسـتلقى عـلى فراشـه يطلـب راحـة! راحـة في الفكـر وراحـة في الجسـم! ولكـن أنّى لـه ذلـك والحـوادث تفاجئـه سراعًـا، ولا يـزال أزيـز الرصـاص يخـترق سـكون الليـل! أنّى لـه ذلـك ولا يـزال صـوت تلـك الفتـاة الحنـون العـذب يـتردد في أُذنـه.... هـا هـي قريـة سَـتّة تعـترض طريقـه، أيضًـا، ولكـن بشـكل آخـر. كـم تحمـل مـن الآلام بذكـر هـذا الاسـم! فقـد كان يلـذع بـه كلـما أراد عـدو أن ينـال منـه! ويعـير بـه كلـما تصـدّى لـه مزاحـم! ويُطأطـئ الـرأس كلـما أشـير إليـه! وكيـف لا يكـون ذلـك وقـد أصبـح هـذا الاسـم سـبة عائلتـه! فـلا يذكـر إلّا مقرونًـا بلعنتهـا! فـإذا مـا وقعـت حادثـة في (زيونيـا) قالـت الصحـف أي في سَـتّة التـي باعهـا المديـر مـن اليهـود! وإذا مـا مـرّ عنهـا قيـل لـه هنـا كانـت سَـتّة التـي باعهـا المديـر مـن اليهـود بعـد أن طـرد أهلهـا وشـتتهم في البـلاد! وإذا ذكـرت الصحـف أسـماء الذيـن باعـوا وطنهـم ببيـع أراضيهـم مـن الأعـداء ذكـر اسـم المديـر بينهـم!

ولكـن لم هـذا البغـض لذلـك الاسـم، وهـذا أنمـوذج مـن أهلهـا قابلـه الليلـة في ذلـك الفتـى وتلـك الفتـاة! هـذان مـن بقايـا أولئـك السـكان الذيـن كانـوا آمنـين في بيوتهـم فأمسـكهم أبـوه بيـده ونثرهـم في مهـبّ الأريـاح فتفرقـوا شـذر مـذر! هـذان فتيـان قرويـان سـاعدتهما الظـروف بـشيءٍ مـن التهذيـب أصبحـا قـدوة الفتيـان! كـم كان سـعيدًا لـو لم يبـع والـده تلـك القريـة حتـى إذا عـاد مـن دراسـته، أخـذ في تهذيـب أبنائهـا وصقلهـم حتـى أصبحـوا جميعًـا في مسـتوى هذيـن؟! إذن لجعـل مـن تلـك القريـة فردوسًـا

تقطنه ملائكة الرحمن! وإذن لكان اسم سَتّة أعذب الأسماء!.... كم سوف تبغضه تلك الفتاة إن علمت أنه ابن صاحب سَتّة! وذلك الفتى، أيضًا، ربما ندم على إنقاذه، وود لو تركه لليهود يمزقون أحشاءه برصاصهم! لو فعل ذلك لما كان غير عادل! فكم مزق والده من أحشاء أقاربهم ومواطنيهم من أهل تلك القرية!.... إنه سيذكر لهما اسمه بدون مواربة، ولكنه لن يتصدى لسَتّة وأهل سَتّة وصاحب سَتّة إلّا إذا ألحُّوا عليه بالسؤال، فعندئذ ليس له إلّا الصدق في القول، فإما أن يعتذر ويسير في طريقه، وإما ألَّا يحمّلانه تبعة ما جناه أبوه ويتخذانه صديقًا وفيًّا!.... كم أثّر فيه منظرهما! كلاهما جميل الطلعة وذو شخصية فذّة! وكلاهما ذكي الفؤاد طاهر السريرة! ولكن الفتى كثير الحياء شديد الإحساس! أما هي! فكأنها ملاك ينطق بالحكمة وتوحي بألفاظها العذبة ونغمة صوتها الجميل ونظراتها الساحرة أجمل ما خلق الله من المعاني!

الزيارة الأولى

ونهض إبراهيم في الصباح نشيطًا مرحًا، فأكل بشهية ثم اعتلى سيارته وذهب إلى مكتبه. ونادى كاتبه حسين أفندي وقال:

- كيف ترى الحالة؟

- لقد هدأت قليلًا بعد أن احتلّ البلدة جنود الدارعة البريطانية وأتوا من ضروب القسوة مع العرب من أهل البلدة ما أتوا!

- وهذا في سبيل الانتداب! ومن أجل ترفيه الشعوب!

- ولكن يا بك من العبث أن تعرّض نفسك هكذا للمخاطر!

- أنا؟ ومن قال ذلك؟

- الناس يقولون إنك اقتحمت البارحة مناوشة وأنك تطرفت في هجومك مع شاب آخر ووقعت في شرك نصبه لكما اليهود وقد أمطروكما بالرصاص فنجوتما بأُعجوبة! لقد أتيت الليلة إلى البيت لأستعلم عن صحتك فقابلني الوالد وطمأنني على سلامتك فالحمد لله!

- وأنت، أيضًا، يا حسين تلومني على قيامي بواجب بسيط هو أقلّ ما يجب على كل عربي في هذه البلاد أن يقوم به عند الحاجة! أم تظنّ كغيرك أن نتخذ نحن لأنفسنا صبغة القيادة الكلامية حتى إذا جاء وقت العمل تركنا الناس بلا قيادة! لا يا حسين أفندي يجب

علينا نحن الشبان المتعلمين أن ننزل من مقابعنا وعن منابرنا ومن وراء مكاتبنا للعمل إذا جد الجد! قل لي يا حسين كيف ترى سير إعانات المنكوبين هل هناك إقبال من الناس؟

- نعم والإقبال عام والكلّ يدفع عن طيبة خاطر.

- وهل جمعت من عمّالنا؟

- نعم ومن زبائننا، أيضًا. الكل يدفع لا سيما إذا كان الطلب للمنكوبين باسمك.

- بارك الله فيك يا حسين والآن فاسمع! أنا مدين بحياتي في مناوشة البارحة لرجل يشتغل في عنابر السكة يدعى أحمد الواسطي! هل عرفته؟

- لا.

- أريد أن أُكافئ هذا الشاب على عمله. فاستعلم لي من معارفك عن حالته الاجتماعية والمالية لنقدم له مساعدة يمكن أن يكون في حاجة إليها.

- سأقدم لك تقريرًا وافيًا عنه غدًا صباحًا. ولكن من دعاه لإنقاذك؟

- أنزلَته عليَّ ملائكة الرحمن وأنا على حافة القبر فانتشلني، وإني أُؤكد لك أني لولاه لما كنت الآن في هذه الدنيا.

- إذن فالمسألة جديّة جدًّا، وسأسعى للاستعلام عنه.

نهـض إبراهيـم بـك مـن مكتبـه واسـتلم البـاب، ولكـن إلى أيـن؟ لا يـدري أيـن يذهـب! إنـه يشـعر بتهيـج في أعصابـه ولا يـدري مـا يصنـع! يجـب أن يعـرج عـلى الجمعيـة الإسـلامية المسـيحية ليسـتعلم عـن أخبـار البـلاد. ثـم يجـول جولـة لجمـع التبرعـات لإغاثـة المنكوبـين مـن أصدقائـه ومعارفـه وزملائـه. ثـم ليقـدم بنفسـه تقريـر الطبيـب عـن مـرض أحمـد إلى مفتـش عنابـر السـكة. ثـم ليبتـاع هديـة صغـيرة يقدمهـا لأحمـد عنـد زيارتـه عـصر ذلـك اليـوم. ثـم الزيـارة! مـا أبعـد وقـت الزيـارة! فهـل مـن اللائـق أن يذهـب قبـل ذلـك؟ الظهـر مثـلًا؟ لا لا هـذا لا يجـوز!

خـرج لتنفيـذ خطتـه التـي رسـمها لنفسـه بنشـاط وجسـد، ورجـع في السـاعة الثانيـة بعـد الظهـر إلى مكتبـه، فتنـاول فيـه طعـام الغـداء ثـم جلـس يفكـر.... مـا أطـول الوقـت! أيجـوز أن يجعـل الزيـارة في السـاعة الثالثـة بـدل الخامسـة؟ لا لا! ولكـن يمكـن ذلـك في السـاعة الرابعـة! نظـر إلى سـاعته! الوقـت طويـل والميعـاد بعيـد! قـام يمـشي ولكـن لا يـدري إلى أيـن!

ودقّـت السـاعة الرابعـة، وحمـل سـيارته حمـلًا لطيفًـا مـن أنـواع الفواكـه، وباقـة كبـيرة مـن الزهـور، وصرّة أنيقـة مـن أنـواع الحلـوى وانطلـق يسـابق الريـح إلى بيـت أحمـد.

ولم يكـد يوقـف سـيارته أمـام البيـت، حتـى بـدت لـه غريبـة بجمالهـا الباهـر ونظراتهـا السـاحرة! وإصبعهـا عـلى فمهـا.

- شش! شش.

- جمـد إبراهيم في مكانـه وتقدمت إليه فقالت بصوتٍ واطئ.

- لم ينـم طيلـة ليلـة البارحـة! كان متهيجًـا جـدًّا، وفي الصبـاح جـاء الطبيـب وقـال يجـب أن ينـام وإلاّ عاودتـه الحُمّـى بشـدة! ومـن حُسـن حظنـا نـام عنـد السـاعة الواحـدة والنصـف، وهـو لا يـزال يغـطّ بنـومٍ هـادئ.

- إذن أتـرك السـيارة هنـا خشـية إزعاجـه بالضجـة عنـد تحريكهـا ثـم أعـود في المسـاء لزيارتـه. وهنـاك هديـة بسـيطة جئتـه بهـا فأرجـوك قبولهـا عنـه!

قـال ذلك وانثنى راجعًا بدون انتظار.

- ولكـن انتظـر! لِـمَ هـذه المشـقة؟ تفضـل واجلـس قليـلًا هنـا في ردهـة البيـت ريثـما يفيـق فتـزوره.

- ربما سـببت لكم انزعاجًا.

- لا مطلقًـا! أتعلـم ما قال لنا البارحة؟

- ماذا قال؟

- إنه يشـعر لك في قلبه بمحبة أخوية!

- وأُؤكـد لـك أننـي، أيضًـا، أشـعر بهـذا! لا بـل جئـت اليـوم لأتعاقـد وإيّـاه عـلى هـذه الأخـوّة.

- مـا أرقّ قلبيكـما! تفضـل اجلـس هنـا! ليـس هـذا مـن قيمتـك. ولكـن.... نحـن فقـراء!

- لا يا سـيدتي! بل أنتم الأغنياء بنفوسـكم وفضائلكم!

- ولكـن هـل يجلب لنا هـذا الغنى مقعدًا يلائم رجلًا مثلك؟

- أحـب إليّ يـا سـيدتي أن أجلـس عـلى الـتراب مـع شـخص كريـم طاهـر السريـرة مـن أن أجلـس عـلى الطنافـس مـع اللئـام!

- وتجلـس مع اليتامى، أيضًا؟

- وأيّ شيءٍ أفضـل وأكرم من ذلك!

- أَلَكَ أب؟

- نعم!

- أتحبّه؟

- وأحترمه، أيضًا

- وأم؟

- توفيت منذ خمس سـنين!

- هل أحببتها؟

- كلّ الحب!

- ما أسعدك!

- ولكنها ماتت وخلّفت في قلبي أحزانًا.

- لا تحزن! يوجد كثيرون ممن لم يعرفوا لهم أمًّا ولا أبًا!....

وترقرق الدمع في عينيها فاضطرب إبراهيم وقال:

- اعذريني يا سيدتي! هل آلمتك بكلامي؟

- لا بل تذكرت أني من أولئك التعساء الذين لا يعرفون لهم أبًا ولا أمًّا!

- ولكن يا سيدتي من كان له قريب كأحمد فلا يُقال له يتيم بالمعنى الصحيح! إني أودّ لو خسرت نصف حياتي وكان لي قريب منه.

- صحيح! إنك كريم النفس!

ودخلت أم أحمد، فلمّا رأت إبراهيم هشّت له وبشّت وتقدمت نحوه فقال:

- لا تؤاخذني يا سيدي على تقطيبي البارحة في وجهك! إني والدة يا بُنيّ! وهو وحيدي وأملي في هذه الدنيا!

- أُؤكد لك يا سيدتي أني لو كنت مكانك لما فعلت أقلّ من ذلك.

- أنـت طيّـب القلـب! لقـد قـال لنـا أحمـد البارحـة أنـه يشـعر بسـعادة عظيمـة لإغاثتـه إيّـاك!

- إنـه وهـب لي حياة جديـدة! فأنا مدين له بها ما حييت!

- أتسـمح لي يا سـيدي أن أسأل من أنت؟

- أنا مهندس!

- ولكن ما اسـمك الكريم؟

- إبراهيم!

- إبراهيم المهندس؟

- لا بـل المهندس إبراهيم المدير!

- إبراهيـم بـك المديـر؟ مـا أحـلى هـذا الاسـم عـلى سـمعي! إن صاحـب قريتنـا سَـتّة الكبـير كان يحمـل هـذا الاسـم! كـم كنـا نُحبّـه ونُجلّـه! لقـد ذهبـت تلـك الأيـام بأهلهـا الطيبـين مـا ذهبـت سَـتّة! وهـل أنـت مـن أقـارب إبراهيـم بـك ذاك؟

- فأجـاب إبراهيـم بـشيءٍ مـن الـرضى والراحـة بعـد ألمٍ شـعر بـه عنـد بدايـة الأسـئلة.

- نعم!

- إذن أنـت رجل كبير!

- إن ابنك هو الكبير بعمله! و لكن....

وسمعوا صوت أحمد يُنادي من الداخل (أمي! أمي!) فدخلت أم أحمد مسرعةً إلى ابنها وبعد برهة وجيزة عادت وقالت:

- تفضّل يا إبراهيم بك تفضّل! قدومك خير! وكيف لا يكون خيرًا وأنت تحمل هذا الاسم الكريم.

- دخل إبراهيم غرفة الجريح وتقدم إلى سريره فأمسك بيده وقال بلطفه المعهود.

- أَهَلْ أنت أحسن اليوم يا أخي؟ فأمسك أحمد بيده وقال:

- ما أعذب كلمتك الأخيرة في أُذني يا سيدي! لم أسمع هذه المناداة في حياتي من غيرك!

- أتحب أن تسمعها دائمًا؟

- من أعماق قلبي!

- إذن هات يدك!

- وأمسك إبراهيم بيده وقال بصوتٍ مرتجف.

- أعاهدك أمام الله أن أكون لك الأخ الوفيّ الشقيق حتى الموت!

سالت عبرات أحمد على خدّيه ولم ينبس ببنت شفة. بل أخذ تلك اليد الصغيرة القابضة على يده الضخمة ووضعها على فمه!

وجلس إبراهيم على حافّة السرير مغتبطًا بشعوره وَصَمَتَ لا يعي ما يقول! وساد الصمت على الجميع! ولما رفع عينيه رأى غريبة تنظر إليه نظرة إعجاب وإكبار وحنان، فشعر بهزّة تتصل بفؤاده، ولكنه أشاح بوجهه عنها ونهض بلطفٍ فجلس على مقعدٍ بجانب أم أحمد فقالت هذه لابنها.

- أتعرف يا ولدي من هو أخوك الجديد؟

- ليكن من كان أليس هو هذا الجالس بجانبك؟

فازدادت دقات قلب إبراهيم اضطرابًا وقلقًا من جهة، وإعجابًا بتلك المروءة من جهة أخرى. وقالت الوالدة:

- أردت أن أقول أن أباك كان يقدس هذا الاسم الذي يحمله! إنه يُدعى إبراهيم بك المدير.

- المدير! المدير... فاه أحمد بهاتين الكلمتين بشهيق صعد من أعماق قلبه.

ثم قال: وهل تعنين والد إميل بك؟

- نعم! ولكن يا بُنيّ كان الفرق شاسعًا بين الوالد والولد، فالوالد كان ملاك رحمة أما الولد فكان شيطان عذاب!

- ما لنا ولشتم الناس يا والدتي! ربما تؤذين إبراهيم بك بهذا!

- لا لا أنا أرغب في سماع انتقاد حق يوجه إلى أقاربي!

- ولكـن مـا لنـا وللنـاسّ اللـه وليّ الجميـع! لقـد أصـاب إميـل بـك مـن العـذاب مـا يكفيـه!... فقالـت غريبـة: مسـكين! مسـكين! ثـم التفتـت إلى إبراهيـم وقالـت:

- أتعرفه؟

- من؟

- الـذي يتكلمون عنه؟

- معرفةً جيّدةً جدّاً!

- إني حزينـة لعذابه لأني عرفته.

- وكيف عرفتيه؟

- كان يـأتي لزيـارتي في المدرسـة، وكان يقـول إنـه كان شريـكًا لوالـدي وصديقًـا لـه! فهـبّ أحمـد مـن سريـره وقـال:

- كيف زارك؟ ولماذا زارك ذلك الشـيطان المَرِيد؟ ذلك الجاني الأثيم!

- لا لا تغضـب يـا أحمـد! لا تتهيّـج إنـه كان يـزورني فقـط للسـؤال عنـي، وكان كل مـرة يجلـب لي هديـة كنـتُ أُسرّ بهـا وأفخـر بـين البنـات بـأنّ لي أُناسًـا يعطفـون عـليّ! أفي ذلـك محـذور؟ ألا يجـب عـليّ الآن أن أحـزن وقـد علمـت أنـه يتعـذب؟

- لا لا يـا غريبـة! لـو كنـت تعلمـين نصـف مـا أعلـم عـن هـذا الرجـل لمـا حزنـت عليـه اليـوم ولا قبلـت زيارتـه بالأمـس!

وظهـرت عـلى وجـه إبراهيـم علائـم الحـزن والارتبـاك فقالـت الوالـدة: ولكـن لنـترك هـذا الموضـوع! إننـا نـسيء إلى ضيفنـا ببحثـه!

فقـال إبراهيم بك وهو يتظاهر بعدم الاكتراث.

- لا بالعكـس! إننـي أوافقكـما معًـا عـلى مـا قلتـما عـن هـذا الرجـل. لقـد طغـى وبغـى حقًّـا، ولكنـه لاقـى مـن نفسـه جـزاءً وفاقًـا! وهـو اليـوم كسـير الجنـاح، مهيـض الجانـب، لا عمـل لـه إلّا الصـلاة والتكفـير عـن ذنوبـه التـي مـا زال يلاقـي مـن توابعهـا كل يـوم غصّـة. ولـو كنـت أنـا أحـد الذيـن وقعـت عليهـم نقـماؤه لصفحـت عنـه اليـوم بعـد أن رأيـت وسـمعت بمـا يلاقـي مـن عـذاب!

فقالـت الوالدة: إن أعمال والده تغطي أعماله!

وقالـت غريبة: والله يعفو عن كثير!

فقال أحمد: يا ليت الحويطي يسـمعكما تقولان هذا!

وسـألَ إبراهيم ومن هو الحويطي؟

- هـو كفيـل غريبـة وكفيـل أمّهـا التـي كانـت آخـر ضحيّـة لإميـل بـك في سَـتّة!

اهتـزّت جميـع أعضـاء إبراهيـم، وانتفـض عـلى كرسـيه، وأخـذ العـرق يتصبّـب مـن جبينـه، ولاحـظ أحمـد ذلـك فسـكت وكبـح جـماح غضبـه!

وأقبلـت الوالـدة تعتـذر إليـه! ووقفـت غريبـة تنظـر إليـه بحـزنٍ وحنـان، وصوّبـت عـلى ابـن عمّهـا نظـرة عتـب مريـرة! ثـم نهـض إبراهيـم وقـال:

- لا لا يوجـد شيء هـام! إنمـا تأثّـرت مـن هـولِ مـا يقولـه أحمـد عـن هـذا الرجـل الشـقيّ المعـذّب!.... فقـال أحمـد:

- عـذرًا! هـذا موضـوع يزعجنـا جميعًـا فلنتركـه ولا نعـود إليـه! قـل لي أيهـا الأخ مـاذا تعمـل؟

- أنا مهندس!

- لعلّ أعمالك ناجحة؟

- كما أشتهي!

- مَـنْ يـدري؟ لعلّنا نتوفق إلى بناء بيت لنا فنرجو عندها مساعدتك.

- بكل سرور.

كان إبراهيـم يجيـب عـلى هـذه الأسـئلة وهـو تائـه الفكـر مضطـرب البـال! ذلـك أن عواطـف جمّـة كانـت تتنـازع نفسـه! فقـد كان يشـعر بـأن نظـرات غريبـة كانـت تنفـذ إلى قلبـه فتـذكي فيهـا نـارًا! ويحـس بـأن هـذا المـلاك الطاهـر إنمـا هـو، أيضًـا، إحـدى ضحايـا والـده! ويـرى أن الأقـدار لا تـزال تهيـئ لـه مصائـب أخـرى عـن طريـق والـده!

ظلّ ساعةً يحادث القوم بلسانه، وعقله وقلبه تائهان مشرّدان هائمان! ثمّ استأذن وانصرف على أن يعيد زيارته في الغد، وذهب توًّا إلى بيته، وسأل عن أبيه، فلم يجده في البيت فجلس ينتظره.

وكان يحسّ بشعور غريب نحو هذه الفتاة! فهل أحبها؟ لا لا!

وكيف يجرؤ على ذلك؟ أيكون ذلك جزاء أحمد على إنقاذ حياته؟ فلم إذن هذا الخفقان وذلك الاضطراب؟ لا! يجب أن يقف أمام هذه المصيبة منذ البدء! فلن يذهب غدًا لزيارة أحمد! ولا بعد غد! لقد علم أنها ستسافر إلى القدس بعد أسبوعين. ليتمارض أو ليتغيب عن البلدة فلا يعود إلّا بعد ذهابها، وعندئذٍ يزور أخاه ومنقذ حياته! هكذا تقضي المروءة! لقد ذهبَ ليتآخى مع منقذ حياته لا ليحاول أن يسلبه جوهرته الثمينة!

وجاء الوالد فلم يشعر به إبراهيم حتى ألقى بيده على رأسه، أخذ يعبث بشعر ولده. فهبّ إبراهيم واقفًا على قدميه وقال:

- أبي!

- ما بالك ارتعبت يا ولدي!

- أنت تعلم أنّ أحمد الواسطي قد أنقذ حياتي من الموت المُحقّق!

- نعم يا ولدي وشكرًا لله وله على ذلك!

- وتعلم أنه ابن عمّ فتاة يُقال لها غريبة!

- لقـد قلت ذلك البارحة يا ولدي.

- هـل عرفت أم غريبة؟

جَمُـدَتْ عينـا أميـل بـك في رأسـه، وصعـد الـدم إلى وجهـه، وانعقـد لسـانه ولم يجـب! فاختلـج قلـب إبراهيـم أمـام هـذا المنظـر وشـعر أن الضربـة أتـت أقـسى مـما أراد فقـال:

- الأمـر هـيِّن يـا والـدي! ذلـك أن هـذه الفتـاة قالـت لي إن رجـلًا اسـمه إميـل بـك المديـر كان يزورهـا في المدرسـة ويكرمهـا وأنـه كان يقـول إنـه صديـق والدهـا وشريكـه!

فتنفّـس الوالد الصعداء وأجاب متلعثمًا:

- نعـم! نعـم يا ولدي! كنت أعطف عـلى هذه الفتاة إكرامًا لوالديها!

- هـل تعرف متى مات أبوها؟

- قبل أن تولد!

- وأمها؟

- ولمـاذا تعذّبنـي يـا بُنـيّ بإعـادة هـذه الذكريـات الأليمـة؟ لقـد قالـوا لـك وكفـى!

- قالوا ماذا؟

- قالوا الحقيقة!

- وما هي الحقيقة؟

- هـي ما قالوا لك!

- أتعـترف بمـا قالـوا؟ إنهـم قالـوا بـأن تلـك الأم المسـكينة كانـت آخـر ضحايـاك في سَـتّة!

- لا يـا ولـدي! إنهـم يحمّلـوني أكـثر مـما يقتـضي لي أن أحمـل! لقـد هاجمتنـي لأني أمرتهـا بالخـروج مـن القريـة يـوم تخليتهـا توطئـة للبيـع، ولكـن قبـل أن تصلنـي وقعـت أمامـي ميّتـة! وذلـك بحضـور الشرطـة وأكـثر أهـل القريـة!

- وغير ذلك؟

- كما قالوا لك!

- لم يقولـوا أكثر مما ذكرت لك!

- وهـذا كل ما هنالك يا ولدي!

- ولماذا إذن كنت تزور هذه الفتاة خلسـة؟!

- لم هـذا العـذاب يـا ولـدي! إنـك تعـرف كل شيء! فالقنـي أو خلّصنـي مـن هـذه الحيـاة البائسـة.

- ولكنـي لا أعرف أكثر مما قلت لك؟

فتنفس الوالد الصعداء ثانية وتيقن أن سرّه لا يزال طيّ الكتمان وقال: لم يكن غير ما ذكرت لك. أما زياراتي فقد كانت لأني حزنت على تلك الأم المسكينة، وأردت أن أكفّر عن شراستي في معاملتها ذلك اليوم بالإحسان إلى ابنتها.

- وهل تشعر بالراحة عندما تقوم بهذا التكفير؟

- نعم! نعم يا ولدي!

- إذن لا تقصّر في أداء ما يقتضيه هذا التكفير من الوجهة المادية، وأنا أُنفق بسرور ما دام ذلك يُثلج صدرك.

فهجم الوالد على ولده يكسو وجهه بقبلات ملهوف حارة!

إنّه يُحبّها

دخل إبراهيم لينام وينسى! ويبعد عنه تلك النظرات وذلك الصوت وهذا الشعور الذي طغى على نفسه! عبثًا حاول وشططًا أراد! ليقرأ لعلّه بذلك يخادع نفسه! أخذ كتابًا وجعل يقرأ ويستجمع أفكاره، ويدقق في الكلمات كلمةً كلمة، وجملةً جملة! كلام مركّب بلا معنى! قام من فراشه وبدون تفكير لبس ثيابه وخرج من غرفته يريد فضاء الله الواسع! الهواء الطلق! فلاقاه والده في ردهة البيت وسأله:

- إلى أين؟

- إني أَرِقٌ وأُريد أن أَمشي قليلًا

- أنسيت يا بُنيّ أنّ الساعة تجاوزت التاسعة منذ أمدٍ بعيد وأن السير خارجًا ممنوع الآن!

- إذن أسير في الجنينة.

- حسن يا بُنيّ!

وأخذ إبراهيم يسير في الجنينة بخطوات قصيرة سريعة مدة ساعة ساعتين ثلاثة! وذلك الوالد المعذّب، يتقدم إلى نافذة مطلّة على الجنينة من آنٍ إلى آخر، فيصغي إلى تلك الخطوات. ويفكر في هذه الظاهرة الجديدة في حياة ولده!

أهيَ أخبار الثورة؟ لا! عندما كانت الثورة في أشدّها وكان يعمل من

أجلها صباح مساء، كان يرجع إلى البيت فينام بملءِ جفنيه وينهض نشيطًا مرحًا كعادته! أَلعلّها أخبار فظائع جديدة عن الثورة؟ ولا هذا، أيضًا! إذ أن التضحية وتحمّل الأذى لا تؤلمه ما دامت في سبيل الصالح العام! أَلعلّها مؤامرة وطنية يخاف افتضاحها وهو على رأسها! ذلك غير معقول أيضًا لأن من عادته ألّا يرتاح باله ولا تقرّ عينه إلّا إذا قام بعملٍ جديّ لوطنه! إذن ماذا! أيمن أن تكون سَتّة؟ وأهل سَتّة تلك الفتاة! وقصة أمها! وذلك أثّر في قلبه... وجمالها الفتّان؟... جَمد الرجل في مكانه، وجحظت عيناه، وشعر أنّ قلبه يكاد ينفجر من شدّة ضرباته! أيمكن أن يكون قد أ ....! لا لا! إن الله أرحم من أن يكيل له كل هذا العذاب! لقد تعذّب كثيرًا وذلك يكفي تكفيرًا عن ذنوبه!.... وأهل سَتَة أين هم؟ أين أطفالهم ونساؤهم وشيوخهم؟ ذهبوا. ابتلعتهم الأرض! أيجب أن يكفّر عن إساءته لكل واحد منهم على حدته؟ أين هم أين هم؟ ها هي بقيتهم! ذلك الفتى الواسطي وأمه وتلك الفتاة! هؤلاء هم آلة الانتقام يمثلون جميع أهل سَتّة! ينتقمون بدون سعي ولا عمل ولا مسؤولية! ينتقمون من نفسه بولده! يا ربّ يا ربّ! ارحم عبدك!

هبط مكانه على الأرض، وتوقف عقله عن التفكير! فلا هو بالصاحي ولا بالنائم! ولا الحيّ ولا الميّت! ودخل إبراهيم من الجنينة بادي العزيمة وأشعل سيجارة فإذا بأبيه مُلقى على الأرض ينظر إليه نظرةً جامدة لا معنى لها! هل جُنّ أو مات! فتقدم إليه وقال:

- والدي! والدي! فأجيب بصوت أبحّ ضعيف.

- نعم يا ولدي!

- مـاذا جرى لك! ماذا تصنع هنا؟

- أُكفّر! أُكفّر.

- لا لا يـا والـدي! هـذا كثـير! إن اللـه رحيـم وغفـور! لا تـدع الأوهـام تطغـى عـلى أفـكارك! كفّـر ولكـن بـدون أن تتألّـم! ليكـن في التكفـير راحـة لـك لا عـذاب! قـم يـا والـدي! دعنـي أُسـاعدك! هيّـا إلى الفـراش صـلِّ يـا والـدي مـا شـئتَ وأحسـن إلى الفقـراء! ولكـن لا تقتـل نفسـك هكـذا.

سـار إبراهيـم بأبيـه إلى سريـره فسـاعده عـلى خلـع ثيابـه وألقـاه عـلى فراشـه ورجـاه أن ينـام. وخـرج إلى غرفتـه وفي عينيـه دلائـل التصميـم والعـزم. قـرر أن ينقطـع عـن زيـارة أحمـد حتـى ترحـل غريبـة إلى القـدس، وعندهـا يجـد لنفسـه عـذرًا. ويطلـب عفـو منقـذه وأخيـه!

أمّـا الوالـد فقـد اسـتلقى عـلى فراشـه ولكـن عينيـه ظلّتـا مفتوحتـين في الظـلام!

والدٌ وابنته

نهض إبراهيم بك متأخّرًا فارتدى ملابسه ومرّ بغرفة أبيه وأصغى! إنه نائم! أمر الخادم ألَّا يأتي بأيّ حركة تزعجه، وخرج إلى مكتبه.

وعند الظهر أفاق إميل بك يشعر بتعبٍ وتكسُّرٍ في جميع أعضائه. نهض وارتدى ملابسه واغتسل بماء بارد وتناول شيئًا من الطعام وخرج. إلى اين؟ ليرى ابنته! لقد عزم على أن يحول بين قلبين هما قلبا ولده وابنته! سار إلى بيت أحمد! ولكن ماذا يقول؟ ماذا يصنع؟ لا يعلم! لم يفكر! إنه يدرك أمرًا واحدًا فقط وهو أن يحول بين ولده وابنته من أن يكونا عاشقين بدون علم أحدهما بالآخر! هذا هو المهم! هذه هي الغاية! أما الوساطة؟! لعلّ الله يُنير له السبيل! ولعلّه يرى أنه مخطئ فيما ظن! فلا يكون هناك حب! لا بدّ أن يواجه الكارثة ويصدّها قبل أن تنقضّ على رأسه!

وكانت الساعة الثانية بعد الظهر. وأحمد نائم نومًا هادئًا ووالدته ترتب شؤون البيت. وغريبة تحوم حوله لتمنع حدوث ضجّة تزعج النائم العزيز.

دخل إميل بك المدير باب البيت الخارجي ووقف مذهولًا حزينًا أمام غريبة. قالت:

- أنت؟!

- نعم أنا! هل عرفتِني؟

- نعـم! وكنـت أفكّـر فيـك وأحـب أن أراك ولكـن ليـس هنـا بـل في القـدس كالعـادة.

- لقـد منعـوني رؤيتـك في المدرسـة وسـمحوا لي فقـط بالسـؤال عنـك مـن المديـر. فسـمعت اليـوم أنـك هنـا.

- أَمِنْ إبراهيم بك؟

- نعم منه.

- وهـل يأتي هو قريبا؟ قالـت ذلك بلهجة لم تخف عليه.

- لا أعلم!

- ادخـل تفضّل هنا. أحمد نائم!

- لقـد أتيـت لأراك وأشـكر أحمـد عـلى إغاثتـه إبراهيـم ثـم لأطلـب إليـه أمـرًا لا بـدّ منـه!

- شـكراً لك يا سـيدي! وما هو ذلك الطلب؟ أو لعلّه أمر مكتوم.

- لا لا! بل أريد مسـاعدتك في إنجاز هذا الطلب!

- بكل سرور!

- أريـد أن يقطـع أحمـد كل علاقـة لـه بإبراهيـم! فوقـع ذلـك عـلى غريبـة وقـوع الصاعقـة. فقطبـت جبينـا وقالـت باسـتخفاف واسـتغراب:

- هـل أتيت لتفرّق بين أخين؟!

- وأيّ أخـين؟ لا يوجـد هنـا إخـوة أنـا عـلى اسـتعداد لمكافـأة أحمـد عـلى مـا صنـع وذلـك يكفـي!

- وهـل تظنّ أحمد يقبـل بمكافأتك، وهو الذي يعرف من أنت؟

- يعـرف مـاذا؟ يجب أن يعرف حدّه وإلاّ عرّفته ذلك!

قـال هـذا وقـد جحظـت عينـاه وانتفـخ شـدقاه وبانـت سـيماء الحقـد والغضـب عـلى وجهـه فـإذا هـو بمنظـره ومظهـره ذاك، إميـل بـك الشـاب راكبًـا جـواده وبيـده صوتـه، يُرغـي ويُزبـد ويُهـدّد ويتوعّـد، وقـد انقـضّ عـلى أمهـا كالنـسر يريـد افتراسـها، وإذ أمهـا أمامهـا بـلا حـراك!

رأت ذلـك الرجـل بمظهـره ذاك يُحـدّق إليهـا بشراسـة وقسـوة! وكأنهـا ذكـرت أمـورًا غابـت عنهـا، بـل تمثّلـت حادثـة أمهـا أمـام عينيهـا واضحـة جليّـة فصاحـت بـلا شـعور ولا تفكـير «أمـي أمـي! ماتـت ماتـت!» قالـت ذلـك وقـد امتقـع لونهـا، وتغـيّرت ملامحهـا، واكفهـر وجههـا وعلتـه أمـارات الرعـب واليـأس! واسـتيقظ أحمـد عـلى ذلـك الصـوت، فظـنّ أنهـا في ضيـق تسـتغيث فوثـب مـن فراشـه ناسـيًا جراحـه وإذا هـو أمـام إميـل بـك! وغريبـة تبـكي بـكاءً مـرًّا وتصيـح «أمـي أمـي! ماتـت ماتـت!» فصـاح أحمـد بـه «أنـت؟! وهنـا؟؟» وبـدت عـلى وجهـه علائـم الغضـب الجنـوني، وأطبقـت يـداه الضخمتـان عـلى عنـق إميـل بـك حتـى كادت عينـاه أن تخرجـا مـن حدقتيـه وقـال:

- قتلت الأم وأتيت اليوم تثني على البنت؟ يا قاتل!

وانحبس الدم في وجه إميل بك، وتدلّى لسانه من فمه! فصاحت غريبة «قتلته يا أحمد قتلته!» فتركه من قبضته ليهوى على الأرض بلا شعور!

وأقبلت غريبة وأم أحمد عليه تفركان يديه وتمسحان وجهه وعنقه بالماء البارد. وأفاق أحمد من غضبه الجنوني وأخذ يساعدهما في إسعاف عدوه.

وكان سكان تلك المحلة قد توترت أعصابهم، وأرهفت آذانهم من جرّاء حوادث ذلك الأسبوع الرهيب، فلم يسمعوا بتلك الأصوات المرعوبة حتى ظنّوا أنها حادثة جديدة من حوادث الثورة. وركض بعضهم إلى مكان الصوت، وبعضهم في طلب النجدة. وهرع آخرون إلى الهاتف يستدعون قوى البوليس! وكانت ضجة وكان هرج ومرج! ثم أخذ الناس يتساءلون عن صحة الخبر. وإذ الخطب هيِّن، والمسألة خصام فردي لأسباب خصوصية. وجلية الأمر أن شابًّا أمسك رجلاً في عنقه وكاد يخنقه! ولكن الله سلّم. والرجل لا يودّ إخبار الشرطة! ولا داعي للتهويل!... ولكن رجال الشرطة حضروا. فيجب أن يقوموا بتحقيقات دقيقة. ويجب أن يقدموا تقريرًا مفصّلًا في الحادثة ويعلموا كل ما هنالك! ثم ينفذوا القانون! وما أقسى القانون الجامد!

وجاء طبيب الصحة، أيضًا، وأسعف الرجل. وهو، أيضًا، لا يمكن إلّا أن يذكر أن هناك محاولة قتل! فعلامات الضغط الشديد ظاهرة على

عنـق الرجـل! واحتقـان الـدم في وجهـه ورأسـه يـدلّ عـلى محاولـة شـديدة! ولم تفـد توسّـلات الوالـدة ولا دمـوع غريبـة ولا رجـاء إميـل بـك. وكان قـد أفـاق مـن إغمائـه وأظهـر رغبـة شـديدة في كتـم الحادثـة. ولكنـه كان شـديد الضعـف تائـه الفكـر!

واقتيـد أحمـد إلى مستشـفى السـجن بالنظـر لجرحـه حسـب إشـارة الطبيـب. وتبعتـه والدتـه تبـكي، وخلّفـت وراءهـا غريبـة في البيـت تنـدب سـوء حظهـا وتحمـل نفسـها تبعـة مـا حـدث!

وقفـت أم أحمـد بـاب السـجن حتـى انفـضّ مـن حولهـا المتطفلـون لاتبـاع حادثـة أخـرى! وأخـذت تفكـر فيـما تصنـع! ومـا الفائـدة مـن وقوفهـا هنـاك كأنهـا أحـد حـراس السـجن! الآن يحاكمونـه فيحكمـون بأنـه قاتـل! خمـس عـشرة سـنة! يـا اللـه أيمكـن ذلـك؟! ولم لا؟ والظلـم مـن شـيم النفـوس! وهـذه حكومـة جائـرة يقولـون إنهـا حكمـت عـلى عمـوم أهـل هـذه البـلاد بالـزوال والتشـتُّت، وهـم لم يقترفـوا ذنبًـا، فكيـف لا تحكـم عـلى ولدهـا بالإعـدام بعدمـا ثبـت أنـه حـاول خنـق رجـل كبـير معـروف كإميـل بـك! مـاذا تصنـع ولمـن تذهـب؟ أيمـن أن يكـون ابنهـا قاتـلًا! إنمـا هـو منقـذ حيـاة مـن المـوت، ومنـذ يومـين فقـط! ولا يـزال جريحًـا مـن جـرّاء ذلـك.... نعـم نعـم! إنهـا نسـيت! ليـس لهـا إلّا إبراهيـم بـك، فلتذهـب إليـه وهـو يسـاعدها ويتدبّـر في أمـر ولدهـا! أليـس هـو أخـاه؟! نهضـت مسرعـةً وكأنهـا أفاقـت مـن رقـاد! ويحهـا كيـف لم يخطـر ذلـك عـلى بالهـا عنـد البـدء!

أخذت تسـأل عن بيت إبراهيم المدير! أو مكان عمله.

- مكتبه في شارع المحطة نمرو ١٥ في الطابق الثاني.

أخذت تركض إليه لا تلوي على شيء! فإبراهيم يساعدها! فهو المعين ومنه الخلاص!

ودخلت العمارة وصعدت السلّم. وفي الباب تصدّى لها خادم وقال إن البيك مشغول مع بعض المقاولين ولا يمكن أن تراه الآن! ومن هي؟ وماذا تريد منه؟ فالبيك لا يقابل طالبي إحسانه في المكتب فلتذهب إلى البيت. ولما بكت وعلا صوتها اشتدّ الخادم في ممانعته وأخذ يأمرها بالنزول وإلاّ دفعها من أعلى السلّم! والمسكينة تصيح وتقول إنها تريد أن تقول له أنهم سجنوا أخاه! أخذوه الساعة. وتخشى إن لم يتداركه أن يحكموا عليه بالسجن خمس عشرة سنة أو بالإعدام! فأولئك قوم ظالمون! فلا يكن قاسيًا! ليقل له أن أم أحمد تريد أن تراه!

وعندئذ سمع صوت إبراهيم بك يودع زائريه فعرفته وصاحت بأعلى صوتها: إبراهيم بك إبراهيم بك أخوك مسجون! أخذوه سجنوه سيحكمون عليه أنقذني! دبّرني! ودهش الخادم إذ رأى إبراهيم يتقدم إليها مسرعًا ويقول بلهفة:

- أنت؟ ماذا جرى؟ هدّئي روعك! لا تبكي هكذا! تفضّلي هنا! وأخذها من يدها إلى غرفته وأجلسها على كرسي ضخم وثير وطلب لها فنجانًا من الشاي. ثم وقف أمامها وقال:

- والآن قولي يا أمي! ماذا جرى لأحمد؟

- أخذوه إلى السجن يا بُنيّ بحجّة أنه حاول قتل إميل بك المدير! ذلك الأثيم، ذلك الذي جنى علينا أولًا وتبعنا الآن ليصبّ علينا نقماته ومصائبه من جديد!

وانحدرت تكيل لإميل بك من التهم ما تعلم وما لا تعلم، وإبراهيم واجم مكفهّر الوجه! متوتر الأعصاب، تائه الفكر، يحصي كل كلمة تقولها وكأنه لا يعي مما تقول شيئًا. وأخيرًا أفرغت أم أحمد جعبتها. وهبط هو على كرسيه وصدره يعلو وينخفض، والعرق يتصبّب من جبينه، وكأنّ أطرافه قد مسّت بتيار من الكهرباء فلا تستقر على حال! فنظرت إليه برعبٍ وقالت:

- والآن ماذا نصنع؟ ألا ترى طريقة لمساعدتي في إخراج أحمد من السجن؟

لا جواب

- أليس هو أخاك الذي أحبّك من أعماق قلبه؟

لا جواب! كان إبراهيم في تلك الغرفة جسدًا! أما روحًا وأما عقلًا فقد كان في غير هذا المكان.

ودخـل الخـادم بعـد لأيٍ يحمـل فنجـان الشـاي، وانتبـه إبراهيـم عنـد دخولـه، فالتفـت إليهـا وقـال بلطـف:

- هـدّئي روعـك واشربي أولًا، واسـمحي لي أن أُلقـي عليـك بعـض الأسـئلة، لأتبـيّن ظـروف هـذا الحـادث وتفاصيلـه المريعـة! وثقـي يـا أمّـاه مـن أني سـأقوم لأقـدم بمـا لم يقـم بـه أخ لأخيـه.

فسـال الدمـع من مآقيها غزيرًا وأقبلـت عليه تقبّل أطرافه وتقول:

- حفظـك اللـه يـا بُنـيّ! لقـد أملـت ذلـك! ليـس لي في هـذه الدنيـا مخلـوق لإسـعافي سـواك أنـت وهـذه المسـكينة اليتيمـة التـي تركتهـا لوحدهـا في البيـت كالمجنونـة لا تعـي لـشيء! سَـل يـا بُنـيّ مـا تريـد! مسـكين أحمـد إنـه معـذور فيـما صنـع، فلقـد سـمعها تصيـح وتسـتغيث وتقـول «أمـي أمـي! ماتـت ماتـت!» فخيّـل إليـه أن ذلـك الشـيطان الرجيـم قـد جـاء ليقتلهـا كـما قتـل أمهـا! فانقـضّ عليـه وأمسـك بتلابيبـه وكان مـن تأثـير ضغطـه عـلى عنقـه أن أُغمـي عليـه ولكنـه تركـه والحمـد للـه بـدون أن يؤذيـه! سَـل يـا بُنـيّ مـا تريـد! والنـاس تجمهـروا يـا بُنـيّ وأحاطـوا البيـت وكأنّ بوقًـا دوّى في آذانهـم فهرعـوا مـن كل حـدبٍ وصـوب! ثـم جـاء رجـال البوليـس والطبيـب! ولا أعلـم مـن اسـتدعاهم! ولـو لم يأتـوا لمـا حصـل شيء. لأن ذلـك القاتـل، ذلـك الأثيـم رقّ قلبـه مرّة واحـدة في حياتـه. فهـو نفسـه أخـذ يتوسّـل إلى رجـال البوليـس أن يطـووا الحـادث، وأن يعفـوا عـن أحمـد، وأنـه كان سـبب مـا حـدث! ولكـن بـلا جـدوى! وكأنّ هـؤلاء يـا بُنـيّ بواشـق إذا انقضـت عـلى فريسـة وأنشـبت

فيها أظفارها طارت فيها فلا نجاة لها ولا رجاء! لم تفد يا بُنيّ دموعي ولا رجاؤه ولا تضرع تلك المسكينة. فقد ألقت بنفسها أمام أحمد لا تريد أن تدعه يتحرك من فراشه فعاملوها بلطفٍ أولا ثم أظهروا كل ما لديهم من فظاظة وشدّة وتركوها ملقاة على الأرض كأنها قميص قذر!

- سَل يا بُنيّ! سَل ما تريد! ولكن الذي حيّرني هو حضور ذلك الرجل إلينا اليوم ولم نره منذ سنين، وأحمد جريح في فراشه. جاء يصبُّ علينا لعناته ويلقينا في مكائده بدون ما ذنب اقترفناه أو فرية أتيناها! سَل يا بُنيّ ما تريد! وصمتت تلهث تعبًا ولهفًا!

- لقد كفيتني يا أم مؤنة السؤال! والآن فلنعمل مسرعين! نهض إلى الهاتف فخاطب محاميه ورجاه أن يترك جميع أعماله وينطلق لإخراج أحمد بالكفالة ويرسله إلى البيت الليلة. وأن يتعهد عنه بأي مبلغ كان. وألّا يترك الأمر حتى يتُمّه! وإن وجدت صعوبات من أحد المراجع فيخابره لعلّه يفيد في ذلك من جهته.

ثم أخذ أم أحمد بيدها إلى سيارته وانطلق إلى بيتها ليريا ما صنع الله بتلك المسكينة التي عزم على أن يتحاشى ملاقاتها! ما أسرع ما تبدل! ولكن ماذا يصنع وهذه التقادير تسوقه إليها رغم أنفه! ووالده يأبى إلّا أن يكون آلة عذابه ومثير أشجانه!

هبطت أم أحمد من السيارة وأسرعت إلى البيت وإذ بصوتٍ يُدوّي في أذنه. فأوقف حركة السيارة وأصغى يودّ لو يتاح له عدم الدخول.

سمع أم أحمد تصيح وتبكي وتناديه فدخل مسرعًا. وإذ بغريبة ملقاة على الأرض صفراء الوجه وبلا شعور. وقد انكفأت عليها أم أحمد تقلّب رأسها وتجسّ يديها! ركع أمامها ورفع رأسها بحنوّ ورفق ثم حملها بين ذراعه وقصد السرير! وقبل أن يضعها فتحت عينيها فالتقى ناظراهما ونفذ إلى قلبه سهم آخر! ثم ألقت برأسها على يده وتركته يلقيها على السرير بدون أن تبدي أي حركة! فذاب حنانًا ورقةً وتدلهًا! غير أنه أزاح عن عينيه تلك الغشاوة ونهض يبغي الخروج من حيث أتى! ولكن كيف يتركها هكذا؟ هل جُنّ؟ أم أن قسوة والده قد انتقلت إليه؟! أيكون والده سبب نكبتها ثم يتركها هو بين الموت والحياة! رجع فأمسك بيدها فإذا هي كقطعة من نار! وجسّ نبضها فإذا الدم يكاد ينفذ من أوعيته شدة وسرعة! فنهض ملهوفًا وقال لأم أحمد:

- لاحظيها حتى أعود بالطبيب.

وجاء الطبيب. فلم يتمكن من تشخيص المرض! ولم يجد غير حُمّى شديدة يجب معالجتها حالًا بكمّادات الماء البارد والثلج. ثم أخذ نقطة من دمها للفحص وخرج. وعند المساء عاد أحمد بعد أن أُخرج من سجنه بالكفالة. فأوقفه إبراهيم في الباب على ما جرى! فدخل على رؤوس أصابعه ممسكًا بيد إبراهيم يريد أن يغدق عليه من آيات الشكر ما لم يجد إلى النطق به سبيلًا. فأخذ يضغط على يده والدموع تسيل من مآقيه وقال بصوتٍ أجشّ:

- أشكرك يا أخي عنها وعن نفسي!

فكانت لهذه الكلمة على قلب إبراهيم أبلغ تأثير! وأحسّ في نفسه ببعض الراحة! فقد اغتبط بنجاحه في إخراج أحمد من السجن. وبسرور والدته بذلك وأصبح بإمكانه الآن أن يبتعد عن هذه المنطقة التي يرى فيها خطرًا على قلبه وضميره وشرفه. ونسي في هذه اللحظة مصابه الأعظم! غاب عنه أن هذه النكبة إنما هي من صنع أبيه بل صنع يده نفسه!

ولم يدعه أحمد يترك البيت إلّا في المساء، فلما خرج عادت إليه هواجسه وأحسّ ثانية بحقيقة الموقف! إنما الجاني أبوه وبدلالته! هلع قلبه عند هذه الفكرة. وارتخت مفاصله وامتلأت نفسه حزنًا وغضبًا! ماذا يصنع الآن؟ أيذهب إلى والده ويقول له لست بابنك ولست بأبي! لقد تحمّلت كثيرًا حتى لم يبق في قوس الصبر منزع؟! وما الفائدة من ذلك؟ إنما تكون مصيبة على مصيبة! وفضيحة على فضيحة! ثم أليس أحمد في حاجة قصوى إلى شهادة أبيه أمام المحكمة؟ وفي أي قضية؟! محاولة قتل! يا الله! منقذه البريء في قفص الاتهام وأبوه الجاني يطالب ثمنًا لجناية بضحية أخرى!

وصل البيت وصعد إلى الإيوان ولما لم يجد والده فيه دخل إلى غرفة نومه فوجده في فراشه تائه الفكر، سقيم النظر بائسًا ينتظر هذه المقابلة ويرتّب دوره فيها! جلس على مقعد بجانب السرير وصمت الاثنان ولكل منهما صدر كمنفاخ الحدّاد وللولد نظرات تخترق الجماد وللوالد منظر يفتّت الأكباد. وأخيرًا نطق إبراهيم.

- كلمة واحدة يا أبي اصدقني بها وإلاّ جننت! فأجابه أبوه بصوتٍ ضعيفٍ عميق:

- سَل ما تريد يا ولدي!

- ما الذي دفعك إلى الذهاب إلى ذلك البيت؟

- أنت!

- أذهبت لتشكر منقذي؟ ألم يكن من الواجب واللياقة أن أكون بجانبك عندئذ فلِمَ لم تطلب مرافقتي أو تشير إليّ بذهابك على الأقل لأحتاط للأمر!

- لا بل ذهبت لأرجوه أن يقطع كل علاقة له ولابنة عمّه بك، بدون أن تشعر أنت أن ذلك بطلب مني!

فاستشاط إبراهيم غضبًا وصاح!

- ولكن ماذا يعنيك أنت؟

- مصلحتك يا بُنيّ!

- مصلحتي أنا؟ ماذا تعني؟ أوضح يا أبي فقد كدت أختنق!

- سأقول لك الصدق يا بُنيّ وأُقسم لك أنه الصدق! رأيتك البارحة تكلّم عن غريبة بلهجة خاصة لم تخفَ عليّ بواعثها. ثم رأيتك تذهب إلى فراشك فترجع بادي الاضطراب والقلق فتخرج إلى الجنينة

تسير فيها الساعة بعد الساعة وأنت مشرّد الفكر معذّب القلب! كل ذلك وأنا أراقبك عن كثب ثم رجعت فنمت أنت! أما أنا فلم أنم! توصّلت إلى الحقيقة وأيقنت أنك تحبّها! ربما كنت مخطئًا! ولكن كلما كنت أفكّر كنت أزداد يقيناً بهذا الحب! فعزمت على إيقافه. ولكن كيف؟ رأيت أن أذهب إلى أحمد وأتوسّل إليه أن يكتب إليك كلمة يطلب إليك فيها أن تنقطع عنه! وإني أُقرّ وأعترف بأني لم أتدبّر في طريقة صالحة للوصول إلى ذلك! كان القلق سائدًا عليّ وكان همّي أن أصل إلى تلك الغاية! فذهبت. وقابلتني غريبة في الباب بابتسامة وبشر. وتسرّعت بأن طلبت إليها مساعدتي للوصول إلى غايتي تلك. وكانت مشادة بسيطة عادية تحصل في كل آن بين أي شخصين. ولكن لدهشتي ورعبي رأيت ملامح الفتاة تتغير فجأة وارتسم الرعب الشديد على وجهها وأخذت ترتعش وتقول «أمي! أمي! ماتت ماتت!» ولا أنكر عليك يا ولدي أن هذه كلمات محزنة كانت آخر ما نطقت بها أمها عندما فاضت روحها أمامي في سَتّة قبل سنين!

وعندئذ خرج من البيت شاب جبار عرفني دون أن أعرفه وأطبق بيديه على عنقي حتى كادت روحي أن تفيض! ثم ألقاني على الأرض جثة لا حراك بها! فأغمي عليّ. ولما أفقت وجدت نفسي بين ضجيج المتطفلين وفوق رأسي الطبيب وحولي ثلة من رجال الشرطة! هذا ما كان يا ولدي بالتفصيل!

- ولكـن لمـاذا تـرى يـا والـدي أن مـن مصلحتـي القضـاء عـلى هـذا الحـبّ في مهـده؟

- الموانـع يا ولدي كثـيرة لا تخفى عليك مطلقًا!

- أرأيـت يـا والـدي كيـف أنـا قـد اتفقنـا عـلى الغايـة وخالفتنـي في الواسـطة فأوقعتنـا في هـذه المصيبـة!

- وكيف ذلك؟

- ذلـك أني أرى رأيـك في القضـاء عـلى هـذا الحـبّ مهـما كلـف ذلـك مـن عـذاب. ولذلـك قـررت ليلـة البارحـة ألّا أرى الفتـاة في حيـاتي وألّا أزور ذلـك البيـت مـا دامـت فيـه بـدون أن أدع أحـدًا يشـعر بذلـك. فأتيـت أنـت وأفسـدت عملي. ولـو ذكـرت لي مـا يجـول في خاطـرك، كـما يفعـل كل والـد مـع ولـده، لـكان في وجـودك بجانبـي ومعرفتـك بـسري خـير تعزيـة وسـلوى! نعـم إني لا أطيـق أن أفكـر أنـه يمكننـي أن أكـون خاطفًـا لتلـك الجمانـة مـن يـد مـن أنقـذ حيـاتي، وعاهـدني عـلى الأخـوة والإخـلاص الدائمـين!

واطـمأن الشـيخ لمـا سـمع وأيقـن أنـه نجـح في عملـه فتنفـس الصعـداء وأراد أن يزيـد ابنـه ثقـة بصحـة رأيـه فقـال:

- وهنـاك يا ولدي الموانـع الاجتماعية والموانع الدينية و.. و...

- لا يـا والـدي إن ذلـك وحـده لا يهمنـي مطلقًـا فعنـدي أن المـرء هـو مجموعـة صفاتـه نفسـه. فـإذا كانـت هـذه الصفـات حميـدة فصاحبهـا

كـفـاء لأي شـخص آخـر! أمـا الفـارق الدينـي فكنـت أظـنّ أنـك تعـرف رأيــي فيــه فــلأني أرى أن هــذا الفــارق يجــب أن يــزول مــن هــذه البـلاد إذا كنـا نحبهـا ونطـب لهـا ولأبنائهـا الخـير. أنـا عـربي ويجـب أن نكـون عربًـا في قوميـة واحـدة ولغـة واحـدة وعقيـدة واحـدة ومذهـب واحـد، أيضًـا. وإلاّ فسـوف نبقـى نحـن الأقليـة آلـة في يـد المسـتعمرين والغاصبـين والظالمـين مـن أمـم العـالم يثبتـون بنـا اسـتعمارهم ويحققـون مطامعهـم، ويسـتعملون عقيدتنـا الدينيـة لمـا لم تكـن لـه، بـل لمـا نهـت عنــه جميــع الكتــب والشرائــع الدينيــة! أمــا تراهــم وكلهــم عقيــدة واحـدة ومذهـب واحـد، يتزاحمـون ويتناحـرون عـلى اقتناصنـا. كل لجهتـه ولقومـه ولبـلاده ولـو كان الديـن هـو الـذي يحـدو بهـم إلينـا كـما يدعـون لمـا رأيـت بينهـم هـذا التزاحـم والتناحـر والتعصـب. وكلهـم مـن أتبـاع السـيد المسـيح وحامـلي تعاليمـه.

أسـقط في يـد الشـيخ مـرّة أخـرى وتحقـق أنـه لم يتقـدم نحـو غايتـه قيـد شـعرة فتنهّـد وقـال:

- لا لا يـا بُنيّ! هذا كلام صبياني!

- بـل هـو كلام يمليـه العقـل والقلـب والمصلحـة! ولكـن مـا لنـا ولهـذا الآن! لقـد اتفقنـا عـلى شيء واحـد هـو القضـاء عـلى ذلـك الحـب!

- نعـم يا ولدي هذا هو المهم!

- وعلينا أن نعمل بعد ذلك على تخليص الذي اتهم اليوم بمحاولة قتلك.

- أنا حاضر لكل ما تريد في هذا الشأن.

- إذن فاذهب غدًا إلى مكتب المحامي علي بك وافعل كل ما يقول لك.

- سأذهب غدًا يا بُنيّ!

خرج إبراهيم إلى غرفته وأشعل لفافة وأخذ يعيد على ذاكرته حوادث اليوم. وكانت كثيرة مؤلمة! ولكن أمرًا واحدًا أخذ على عقله السبل واحتكره احتكاراً! تلك النظرة المملوءة بالحب الطاهر. وتلك الحركة الصغيرة في حدّ ذاتها الكبيرة في معاينها، طغت عليه فلم يرَ إلّاها ولا فكر إلّا بها! إذن فهي تحبّه! وأي حبّ؟ أحبّ صداقة؟ أخوة؟ لا بل حبّ المرأة للرجل! مسكينة هي ما أشقاها! بل ما أشقاه.

ولكن ليفكر في الأمر مليًّا؟ أصحيح أن هناك فوارق؟ الفارق الاجتماعي! ذلك أمره هيِّن! إنه لم يرَ بين عائلات هذه البلدة فتاة مثلها لطفًا وأدبًا وذكاءً وأخلاقًا! وهذا يكفي! والفارق الديني؟ إنما هي فرصة لتنفيذ فكرة اختمرت في رأسه وأصبحت عقيدةً وإيمانًا بحد ذاتها! إن الله إله الجميع، وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لدى جميع الأديان! فهذا الفارق الديني الذي اتخذه المستعمرون آلة لتنفيذ مآربهم المادية ومظالمهم القومية يجب أن يزول. وليكن هو القدوة

لغـيره في الانتقـال مـن سـبيل اللـه إلى سـبيل اللـه ومـن رحمـة اللـه إلى رحمـة اللـه!

بقـي الأمـر الثالـث! أحمـد! إنـه يحبهـا ونظراتـه تـدلّ عـلى ذلـك! ولكـن نظراتهـا لا تـدلّ عـلى حـبّ بـل عـلى إخـلاص وارتبـاط أخـوي!... ومـا هـذا الـذي يفكـر فيـه؟ أيكـون سـالبًا لأحمـد هـذا الكنـز! أيكـون جـزاء أحمـد عـلى إنقـاذ حياتـه رصاصـة فسـجنًا فسـلبًا؟ لا لا! ذلـك لـن يكـون أبـدًا.

أخـذ يطـرد هـذه الأفـكار مـن مخيّلتـه وأبـت إلّا أن تبقـى سـائدة طاغيـة! وقـام بعـد منتصـف الليـل منهـوك القـوى يريـد فراشـه وقـد سـلم نفسـه للأقـدار! ومـن يـدري؟ لقـد مـرت عليـه في هذيـن اليومـين مـن الحـوادث المفاجئـة مـا لم يمـر عليـه مثلـه طـول حياتـه! اللـه وحـده يعلـم مـا انطـوت عليـه نفسـه ومـا تخفـي الصـدور فليـترك التفكـير وليسـتنر بهديـه!

المرض

مـرّ عـلى تلـك الحـوادث المريعـة سـبعة أيـام، ولم تفـارق الحُمّـى الشـديدة ذلـك الجسـم البديـع الـذي خلـق اللـه فيـه غريبـة! ولم يفارقهـا الهذيـان الدائـم فهـي لا تـزال تـرى أمهـا ملقـاة أمامهـا بـلا حـراك فتصيـح «أمـي أمـي! ماتـت ماتـت!» ولا تـزال تصيـح فجـأة «قتلتـه يـا أحمـد قتلتـه!» ولا تـزال تنـادي «إبراهيـم بـك إبراهيـم بـك»!

وكان إبراهيـم بـك يمـرّ عـلى البيـت في أوقـات مختلفـة ويسـأل عـن صحـة المريضـة دون أن يدخـل. ولم يشـأ أحمـد أن يزعجـه بأخبارهـا فـكان يطمئنـه ولا يذكـر لـه مـن هذيانهـا شـيئًا! لا سـيّما وقـد علـم الآن أن إبراهيـم هـو ابـن إميـل! ولم يكـن ذلـك ليغـير مـما حفظـه لإبراهيـم في قلبـه مـن مـودّة واحـترام. بـل إن إخلاصـه ازداد نحـوه بعدمـا رأى منـه مـن العنايـة والمسـاعدة مـا لا يقـوم بـه أخ لأخيـه.

وجلـس إبراهيـم في مكتبـه يفكـر في قضيـة أحمـد. لقـد قـال لـه المحامـي إن الحكـم محتّـم. ولكنـه يأمـل أن يكـون خفيفًـا بالنسـبة للتهمـة ونفـس الجـرم! وقـد أخـبره أن أوراق الدعـوى كلهـا تحـت البحـث في إدارة السـكة الحجازيـة وأن فصلـه مـن الوظيفـة يـكاد يكـون محققًـا! هكـذا تقـضي القوانـين والأصـول المرعيـة!

وإذ بالطبيب يدخل وفي عينيه أمارات الجد. فهلع قلب إبراهيم خوفًا على غريبة فقام وصافح الطبيب وقال:

- هل من خبر سيئ؟

- لا تزال الفتاة تتقلب في حُمّى شديدة، وهذيان مستمر! وقد احترت في هذه الحُمّى ولم أجد لها من سبب! ولكني اليوم بعد زيارتها فكرت كثيرًا في أمرها وخطرت لي فكرة.

- وما هي؟

- إن الفتاة تهذي دائماً بأشياء ثلاثة: موت أمها ومحاولة قتل أبيك وأنت. فوجم إبراهيم عند سماع ذلك وبهت لا يدري ما يقول. واستمر الطبيب في كلامه فقال:

- أما أن الحادثين الأولين يؤثران على دماغها ويدفعانها للهذيان فذلك أمر عادي لا غرابة فيه! وأما ذكر اسمك أنت فهذا أمر غير عادي!

- وماذا تظن؟

فضحك الطبيب وقال:

- بل ماذا تظنّ أنت؟

- ليس عندي ما أُنبِئكَ به يا دكتور.

- ولكن عندي ما أُنيرَك به يا إبراهيم! إن الفتاة تحبّك بل تموت في هواك! وأنت يا قاسي القلب منقطع عنها، فلم تدعها تشعر بوجودك مرّة واحدة! ولذلك فهي تهذي بك وتتلفّت فلا تجدك!

لمعت عينا إبراهيم بالحبّ الصادق، ظهرت على وجهه أمارات اللوعة والإشفاق والحنان ونظر إلى الطبيب بعين تترقرق فيها الدموع وقال:

- قل يا دكتور! ماذا تريد أن أصنع؟ قل فلا رأي لي. فالقول والرأي لك!

- لقد طلبت إلى أحمد وأمه أن يدخلاك إليها عند ذكر اسمك لتكلمها فلعلّها تشعر بك وتجد راحة بقربك، فيؤثر ذلك على أعصابها المتوترة ويكون بذلك العلاج الشافي!

وقام إبراهيم دون أن ينبس ببنت شفة وودع الطبيب واستقلّ سيارته ودفعها نحو بيت أحمد.

قابله أحمد على الباب. وكان قد شفي تمامًا من جرحه فسأله عن المريضة كالعادة فأجابه كالعادة، أيضًا، بأنها محمومة تهذي.

- ألا يجوز أن أراها!

- إذا كان ذلك لا يزعجك!

- لقد جنيت على هذه المسكينة أولًا وثانيًا فهل تزعجني زيارتها يا أحمد؟!

- أنت؟

- أنا أو أبي كلانا مسؤولان. فلقد علم بوجودها هنا مني!

- لا يا سيدي فالله يقول «ولا تزر وازرة وزر أخرى!» ودخلا غرفة المريضة وأم أحمد واقفة فوق رأسها.

جسم نحيل أضنته الحُمّى! وبان من تحت ذلك الأديم الصافي عروق زرقاء تنبئ عن سقم وهزال! نظر إليها بلهفة! حتى في هذا الوضع فهي ملك كريم!

وقف الثلاثة حول فراش الفتاة ولا كلام ولا حركة، مدّة طويلة، وكل يفكر من جهته ووجهتهم الفتاة. وإذ بها تتحرك حركات سريعة ضجرة، ويحمرّ وجهها وتنادي «أمي أمي! ماتت ماتت!» وبعد برهة عادت فصاحت «أحمد! قتله يا أحمد» ثم غاض الاحمرار واعتلا مكانه اصفرار السقم وتبسّمت ونادت «إبراهيم بك! لِمَ لم يأت؟» وتقدم إبراهيم فأمسك يدها ووضعها بين كفيه وقال بصوتٍ حنون عذب «هأنذا إبراهيم أمامك! ألا تريدين أن تخاطبيني! ألا تريدين أن تنظري إليّ؟!» أطبقت المسكينة أصابعها على يده. ثم فتحت عينيها وتبسّمت وتنهّدت، ثم ذبلت عيناها ونامت، وقد أصبح تنفسها أكثر هدوءًا وانتظامًا، وبقيت تلك الابتسامة تتردّد على ثغرها اللطيف.

مرّت ساعة والثلاثة صامتون ينظرون بتلهُّف وألم إلى تلك المسكينة وعاد إليها شعورها مرة أخرى وفتحت عينيها وقالت «أين أنت؟»

فتقـدم إليهـا إبراهيـم بـلا تفكـير ولا شـعور وقـال «هأنـذا» وأعـاد حركتـه الأولى، وأسـمعها كلماتـه السـابقة فتبسّـمت ثـم أغمضـت عينيهـا ونامـت نومًـا هادئًـا. وبعـد برهـة أخـذ العـرق البـارد يتجمـع فـوق جبينهـا كحـب اللؤلـؤ. ووقـف الثلاثـة حولهـا مدهوشـين مأخوذيـن فرحـين. وقـد أذهلهـم ذلـك التبـدّل السريـع. ثـم تركـوا الفـراش خشـية إزعـاج النائمـة وانتقلـوا إلى غرفـة الاسـتقبال. وأخـذ كل يفكـر مـن جهتـه. فأحمـد مقطـب الجبـين ممتقـع اللـون كسـير الخاطـر! أمـا أمـه فكانـت فرحـة مدهوشـة. مأخـوذة بريـب مفاجـئ! وأمـا إبراهيـم فقـد تحقـق مـا قالـه الطبيـب ووقـف لا يـدري أيـن يوجـه فكـره.

وبعـد لأي تحركـت الفتـاة فهـرع الثلاثـة إليهـا فحملقـت بهـم جميعًـا. وابتسـمت لهـم جميعـاً ولمـا صوّبـت نظرهـا نحـو إبراهيـم، ذبلـت أجفانهـا واحمـرّت وجنتاهـا وأخـذت أصابعهـا تعبـث بطيّـات الغطـاء!

الدعوى

في اليوم الواحد والعشرين من شهر أيلول سنة ١٩٢٩ نطقت المحكمة بحكمها في قضية أحمد الواسطي، الكاتب في عنابر السكة الحجازية، فقضت عليه بالسجن شهرًا واحدًا، وبفصله من وظيفته لمحاولته قتل إميل بك المدير بدون سابق تعمُّ أو إصرار! وكان الحكم خفيف الوطءِ بالنظر للشهادات التي وردت في صالح المتهم من إدارة السكة ومن المجني عليه نفسه. وتلقى أحمد الحكم بهدوء! ولكن جميع من حضروا تلاوة الحكم لاحظوا اضطرابًا شديدًا وتألُّمًا ظاهرًا يعلوان وجه المحكوم عندما تليت فقرة فصله عن وظيفته.

وفي اليوم نفسه تمكن حسين أفندي كاتب إبراهيم بك المدير من مقابلة المحكوم أحمد الواسطي في السجن لغرض خاص هو غاية في الأهمية وقال له بلهفة:

- إني كاتب المهندس إبراهيم بك المدير. وقد كان منذ مدة بحاجة إلى مساعدة له. وكان طيلة هذه المدة يفتّش عن شخص لائق لمثل هذه الوظيفة التي تحتاج قبل كل شيء إلى أمانة واستقامة. ومنذ أسبوع تحقّق أنك الشخص اللائق لهذا العمل. فكلّفني أن أعرضه عليك. وقد كنت في شغل شاغل إنساني ذلك حتى اليوم. فلما سألت عنك أخبرت بأنك هنا بعد الحكم. وإني أخشى غضب إبراهيم بك إن عرف بتقصيري هذا. فأرجوك قبول معذرتي وهذه الوظيفة والراتب عشرون جنيهًا شهريًّا وسهم في الأرباح.

دهـش أحمـد عنـد سـماع هـذا الخـبر. لقـد كان أشـدّ شيء في الحكـم عليـه فصلـه مـن وظيفتـه لأنهـا كانـت مـورد رزقـه الوحيـد! والآن جـاءه هـذا الخـبر السـماوي في سـجنه! ذهـل وقـال متلعثـمًا:

- أرجـوك أن تمهلني دقيقة لأفكر!

- فكـر يـا سـيدي فكـر! ولكـن أرجـوك أن تذكـر أني متـضرر لا محالـة مـن رفضـك!

فأخـذ أحمـد رأسـه بـين يديـه وأخـذ يفكـر! مرتـب بعشريـن جنيهًـا أي أكـثر مـن ضعفـي مرتبـه. وسـهم في الأربـاح! هـل هـذا صحيـح، أم هـو في حلـم؟ وفـوق ذلـك عمـل مسـتظل برعايـة أخيـه الـذي أغـدق عليـه نعمـه منـذ أن عرفـه! وبرجـاء حـار! وروايـة هـذا الكاتـب؟ أهـي صحيحـة أم هـي مـن كرامـات إبراهيـم، لم يـرد أن يمـنّ عليـه فجعـل هـذه النعمـة الكبرى عـن طريـق الرجـاء والاسـتعطاف بوضعهـا في هـذا القلـب اللطيـف؟ كيفـما كانـت فهـي منّـة كـبرى يطـوق بهـا جيـده! ومـاذا تقـول والدتـه؟ أو بالحـري غريبـة! إن هـذا العمـل وحـده يرجـح كفـة إبراهيـم في عينيهـا! ولكـن هـل هـو يليـق بهـا أم رجـل مثـل هـذا أولى لهـا وتليـق بـه؟! إنـه يحبّهـا! ولكـن إذا لم تحبّـه تلـك المحبـة وأحبّـت إبراهيـم صاحـب هـذه النعـم أيجـوز أن يقـف هـو في الطريـق مـا دام هـذا الحـبّ طاهـرًا نقيًّـا؟! لا إن الـزواج أساسـه حـبّ متبـادل! وإلاّ كان نقمـة لا نعمـة! ولكـن مـا لـه ولهـذه الأفـكار! الأمـر الواقـع هـو أنـه رفـع عـن كاهلـه عبئًـا ثقيـلًا هـو المعـاش بعـد أن قطـع الأمـل منـه ورفـع رأسـه إلى حسـين أفنـدي وقـال:

- قل لإبراهيم بك إنها منّة يطوّق بها جيدي ما حييت.

- أشكرك يا سيدي وأؤكد لك أنه سيسرّ كثيرًا من هذه البشرى.

ولم يكمل أحمد مدة سجنه بل قيل له إن إبراهيم بك دفع عنه غرامة عن ثلث المدة وخرج بعد عشرين يومًا من السجن إلى بيته تصحبه والدته وغريبة وهما تكادان تطيران من الفرح!

دخل أحمد بيته بعد غياب عشرين يومًا ووجهه يطفح بِشرًا وحبورًا. وقد أخفى عن والدته وغريبة خبر التحاقه بإبراهيم بك بوظيفة جديدة. إذ لم يشأ أن يزفّ إليهما هذه البشرى إلّا بنفسه وفي بيته. وقد رجا إلى أمه منذ أن حكم عليه ألَّا تزوره في السجن لأن قلبه يتفطر من رؤيتها فيه.

فلمّا استراح الثلاثة وجلسوا يتجاذبون أطراف الحديث ويحتسون القهوة قال أحمد فجأة:

- ولماذا لا تسألاني عن العمل بعد فصلي من الوظيفة!

فقالت الأم: لا يا بُنيّ! هذه ساعة سعادة وسرور! فلا تذكرنا بفقد وظيفتك. إنّ الله الذي تولّاني وإيّاك بعنايته منذ أن توفي والدك سيتولّاني بعنايته، أيضًا، ويمنّ علينا بفضله وكرمه.

- ولكنه قد وافانا بفضله وكرمه.

فقالت غريبة ضاحكة:

- قل قل يا أحمد! في عينيك كلام مُسرّ وبُشرى عظيمة.

وحملقت الوالدة بولدها تودّ التقاف ما سيقول.

- وإذا كانت هناك بشرى أعظم مما تتوقعان وأوفى مما تأملان!

- تكلم يا ولدي! لقد سالت قلوبنا شوقًا إلى سماع ما تريد أن تقول.

- لقد توظفت!

فصاحت الاثنتان: متى وأين؟

- تعيّنت يوم انفصالي من الوظيفة بمرتب شهري قدره عشرون جنيهًا وسهم في الأرباح لا يقل عن مئة جنيه في السنة.

- فدهشتا لهذا النبأ السار. وأطلقت الوالدة للسانها العنان صياحًا وزغردة. ولم تتمالك غريبة أن وثبت إليه وقبّلته في جبينه. فاحمرّ وجهه خجلًا وعقد لسانه وظهر على وجهه ارتباك شديد. ثم أخذت تركض من مكان لآخر ودموع الفرح تنهمل من عينيها. فقد تحققت منذ البدء أنها كانت سبب مصائب أحمد وقطع مرتبه. أما الآن وقد عوّضه الله بما لم يؤمل فقد شعرت بالسعادة تغمرها والدنيا تُقبل عليها. وأفاق أحمد من ذهوله فقال:

- ولكنكما لم تسألاني ما هي الوظيفة الجديدة ومن أين؟

- مـن اللـه يا ولدي إن الله هو الرزّاق.

ورفعـت غريبـة عينيهـا إليـه فوجدتـه مصوّبًـا بـصره نحوهـا ينتظـر منهـا جوابًـا أقـرب إلى الواقـع المحسـوس فقالـت:

- إنمـا هـذه فعلة صديق كريم بل أخ غيور.

فقال:

- ومن هو ذلك الأخ؟

- أنـا لا أعـرف أصدقـاءك. وكأن الوالـدة كانـت في غيبوبـة واسـتفاقت وصاحـت.

- بـلى هذه كرامة إبراهيم بك.

ولمـا قرأت في وجهه أمارة الموافقة قالت:

- ويـلي عـلى غبـاوتي! كيـف أني لم أعـرف ذلـك لأول وهلـة. إذ هـو الـذي أغـدق علينـا نعمـه في غيابـك يـا ولـدي. وهـو الـذي قـام بالسـعي لإخراجـك مـن ورطتـك وهـو الـذي دفـع للطبيـب وللمحامـي وللسـجن.

- نعـم يـا والـدتي وهـو الـذي طوّقنـي بهـذه المنّـة وحبـاني بهـذه النعمـة ولكـن ليـس بمنّـة بـل برجـاء حـارّ.

- مـا أحسـن هـذا الرجـل! هكـذا كان جـده يـا ولـدي، في طيبـة قلبـه وكـرم نفسـه.

وكانت غريبة تسمع هذا الحديث فيقع على قلبها بردًا وسلامًا ويشعل في نفسها نارًا متأجّجة. ولكنها قالت ببساطة ظاهرة وبدون تفكير.

- ولكنه غريب الأطوار فمنذ غيابك لم يزرنا مطلقًا.

فقالت الوالدة:

- ولكن يا بُنيّتي إنه رجل كثير الأشغال. وكفى منه كرمًا أنه كان يرسل كاتبه كل يوم ليسأل عنّا ويطمئننا عن أحمد ودعواه. وأنت يا بُنيّتي صغيرة ولا تعرفين بعد كيف يتصرف الناس بعلاقاتهم فيما بينهم. إذ لا يجوز أن يزورنا صديق كهذا، ولا رجل في البيت يُقابله.

- ولكن ليس هو بصديق فقط بل هو أخ لأحمد.

وقال أحمد:

- ألا تريد أن نشكره على عمله؟

- بلى!

- إذن ندعوه غدًا لتناول طعام الغداء عندنا.

- جيّد جدًا.

وقامت الوالدة ترتب شؤون البيت استعدادًا للغد. وأخذت غريبة تسير على غير هدى لا تدري ماذا تصنع. وقام أحمد فأصلح ثيابه

وذهب إلى مكتب أخيه ورئيسه الجديد ليشكره على جميل صنعه. ويستعلم عن طبيعة عمله وأوقات المباشرة به. ويدعوه باسم والدته لتناول طعام الغداء ظهر الغد. واستقبله خادم المكتب في أعلى السلّم هاشًّا باشًّا. وقام حسين أفندي من وراء مكتبه يهنئه بسلامة العودة إلى حريته. وأطلّ إبراهيم من باب غرفته وهو ضاحك مغتبط فخور. ووقف أحمد بجانبه خافضًا بصره وقال مضطربًا.

- إبراهيم بك! أودّ أن أشكرك ولكني لا أجد تعبيرًا يفي بما يكنّه قلبي لك.

- لا لا يا أحمد. أرجوك غاية الرجاء أولًا، ألّا تخاطبني إلّا بـ يا إبراهيم أو بـ يا أخي. وثانيًا، ألّا تشكرني بل الشكر لك دائمًا إذ لولاك لقضي عليّ في تلك الليلة ولما كانت في الوجود.

- أزالت هذه الكلمات العذبة الصادقة شيئًا من الكلفة بينهما فرفع أحمد إليه نظره وقال:

- ألا تودّ إذن أن نرتبط بعيشٍ وملح؟

- بكل سرور. الآن وهنا إذا أردت.

- لا لا. فأمي وغريبة تودّان أن تشكراك، أيضًا، على جميل صنعك ولا سبيل إلى ذهابهما للبيت بعد تلك الحادثة وليس من اللائق حضورهما إلى المكتب فالأوفق لنا جميعًا أن تشرفنا بتناول طعام الغداء غدًا.

فتململ إبراهيم واحتار في أمره. لقد عزم على قطع صلته بذلك البيت ما دامت غريبة فيه والآن بماذا يجيب على هذه الدعوة؟

- ولكنكم الآن تهيئون أنفسكم لوداع غريبة. لقد فهمت أنها ستذهب إلى القدس في أواخر هذا الأسبوع بعد أن تأخّرت بسبب مرضها. ثم إني غارق في أشغالي كما ترى. ألا يجوز أن يكون ذلك في الأسبوع الآتي.

- يمكن! ولكن الأوفق أن يكون غدًا، وخير البرّ عاجله. ثم إني أرغب أن يكون ذلك بوجود غريبة. لقد جاءت هذه المسكينة إلينا تقضي عطلتها بمسرّة ونشاط ولكن الظروف عاكستنا فلم تذق فيها إلّا التعب والمرض واضطراب البال!

- ولكنك تعلم أن العوائد ربما وضعت موانع وحواجز....

- لا يا أخي أنت واحد من البيت. بل أنت كل البيت. أنت الأخ الأكبر وقد طوّقتنا جميعًا بفضلك. فيجب أن ترفع هذه الكلفة. أنت آمن وأحرص منا على أنفسنا. هكذا عوّدتنا.

فازداد اضطراب إبراهيم عند هذه الكلمات الدالّة على ثقة وصداقة عالية غالية. فرأى أن يقطع في الأمر، ويجابه الحقيقة المُرَّة وإلّا فهو نذل جبان! فالتفت إلى أحمد وسيماء الجد على وجهه وقال:

- ألا ترى أن وجودي في البيت أثناء وجود غريبة ربما أوقعك في محذور؟

أحـسّ أحمد بما يريـد صاحبه و لكنه تجاهل وقال:

- لا. مطلقًـا فكـما أنها أختي فهي أختك إن أردت.

- كيف؟ أليسـت هي خطيبتك؟

- لا

- ألسـت براغبٍ في أن تكون كذلك؟

- الأمر بيدها وحدها

- ألم تلاحـظ رغبـة منهـا؟ فتجلّـت غريبـة لأحمـد بعيـدة عنـه بعـد السـماء عـن الأرض فقـال:

- لا أدري. إني أرى أنهـا تعاملنـي معاملة الأخت لأخيها.

تشـجع إبراهيم بهذا الجواب وقال:

- ولكـن ألم تفكـر في مسـتقبلها مـن هـذه الجهـة؟ ألسـت اليـوم وليّ أمرهـا؟ والمسـؤول عـن تمهيـد السـبل لإسـعادها بالنسـبة لنفسـك أنـت.

- لقـد فكّـرت في ذلـك منـذ أن رأيتهـا ولكـن ليـس بالنسـبة لنفـسي بالحـصر بـل بالنسـبة لسـعادتها بالحـصر. فالـذي يهمّنـي في الدرجـة الأولى أن أراهـا في بيـت تعـرف فيـه قيمتهـا وتمتـع فيـه بالحـبّ والسـعادة!

- ما أحسن قلبك! وما أنبلك وأكرم عواطفك يا أحمد. غدًا الظهر عندكم. والآن تعالَ نرتب أعمالنا. فإني أريد أن تصبح مساعد مهندس بأقصر ما يمكن من الوقت. وسأبذل جهدي لتلقينك ما ينبغي أن تعرف من مبادئ المهنة وأنا آمل أنك بفضل ذكائك سوف تقدم لي من المساعدة أكثر مما أملت عند التفكير بالعمل معك.

أمل بعد يأس

أفاق إبراهيم بك المدير نشيطًا مرحًا كعادته السابقة. فدخل السرور إلى قلوب جميع من في ذلك البيت الذي لابسه العبوس والحزن منذ أكثر من شهر. فتناول طعام الفطور وذهب إلى والده فلاطفه ونفحه بمبلغ من المال ورجاه أن يوزعه على الفقراء. وبشّ في وجوه خدمه ثم استقلّ سيارته وقصد مكتبه. فهل قام بعملٍ أو أنجز مهمة؟ لا بل كان يذرع غرفته ذهابًا وإيابًا. فهو يشتغل ولا يشتغل حتى أعيته هذه الحالة العصبية فهبط على مقعده وأخذ يفكر.

إذن فأحمد ينظر إليها نظرة أخوية ولا يرى نفسه كفئًا لها. ولا يريد إلزامها بنفسه. إنما يريد سعادتها أينما كانت. وهل تكون سعادتها لدى غيره وفي سوى بيته؟! ألم يلاحظ نظراتها أثناء المرض وقبله؟ ألم يكن ذلك دليلًا على الحب؟ وإذن فحبّهما متبادل! والسعادة كلها في ذلك. ولكن الموانع؟ أحقاً أنها بسيطة!

ذلك المانع الاجتماعي وهم لا يؤثر عليه. ولكن المانع الديني، لقد كاد والده يصعق عندما عرف عقيدته في ذلك! مسكين ذلك الوالد، لقد تعذّب كثيرًا وهو سيدفعه مرّة أخرى إلى العذاب! ولكنه هو، أيضًا، تعذّب كثيرًا وبسبب والده وتهور والده وتعصب والده! أيدع ذلك التعصب يؤثر عليه مرة أخرى ويحرمه السعادة؟ لا! يجب أن يكون فكره أوسع من فكر والده ووطنيته أصحّ وإيمانه أعمق. أما الوالد الذي قضى على أمه فلم يكن سعيداً في حياته الزوجية! فيصحّ أن

يكـون ناصحًـا لـه في حياتـه الزوجيـة نفسـه؟ وإذا لم يكـن ذلـك فَلِـمَ يقيـم سـدًّا يحـول دون سـعادة ابنـه؟ وتلـك الجنايـة التـي ارتكبهـا أبـوه وهـو ينفـض يديـه مـن سَـتّة! ألا يجـوز أن تكـون العنايـة الإلهيـة هـي التـي دفعـت بهـذه الفتـاة بـين يديـه ليكفّـر الابـن للبنـت عـمّا جنـاه الأب نحـو الأم! وبـأيّ وسـاطة كان ذلـك؟

بوسـاطة إنقـاذ حياتـه مـن قتـل محقـق! إذن فأبـوه يقتـل وابـن عمهـا ينقـذ وهـما يقعـان في حـبّ صـادق طاهـر مـن النظـرة الأولى. إنمـا ذلـك فعـل العنايـة الإلهيـة تقـوده إلى سـعادة مقـدّرة!

ونظـر إلى سـاعته فـإذا هـي الظهـر. ولكـن الغـداء في الواحـدة. ومـاذا يهـمّ لـو ذهـب قبـل ذلـك؟ أهَـلْ هنـاك كلفـة؟ لا لا ليذهـب حـالًا. واعتـلى سـيارته وانطلـق يسـابق الريـح. والحـبّ يحـدوه والأمـل يتـلألأ أمـام عينيـه.

وخـرج أحمـد عـلى حركـة السـيارة تقـف بـاب البيـت وانطلقـت الوالـدة مـن مطبخهـا نحـو البـاب ترحـب وتشـكر وتمتـدح. وعينـا إبراهيـم تبحثـان عـن مسـتقرهما فـلا تجدانـه. ودخلـوا غرفـة الاسـتقبال، وإذا غريبـة منتصبـة كأنهـا تمثـال مـلاك اصطبـغ وجهـه بحمـرة الحيـاة والحيـاة. فقالـت الوالـدة:

- مـا بالـك يـا بُنيّتـي واقفـة هكـذا. ألا تسـلمين عـلى البيـك؟ ألا تتقدمـين لشـكره؟ فقـال إبراهيـم:

- لا بل عليَّ أنا أن أعتذر لها عمّا سببته لها من إزعاج ومرض.

فأجابت:

- أرجوك! لا تذكر تلك الحادثة فلقد كنت أنا المسيئة لكم جميعًا وكنتم المحسنين!

وقال أحمد: هذا ظلم بل أنا المسيء إليكم بحماقتي وطيشي. وقالت الوالدة:

- دعونا من كل هذا فلو لم تكن الإساءة لما كان الإحسان. وقد ذقنا مرارة الإساءة فلنذق الآن حلاوة الإحسان.

وضحك الجميع وقعدوا يتجاذبون أطراف الأحاديث. وكانت ستّ أعين تتجه نحو إبراهيم. اثنتين بحبّ والدي واثنتين بحبّ أخوي فكلما أعمل إرادته فجذبهما إلى أحمد وأمه ران عليهما الحبّ الجارف فاجتذبهما إلى غريب. وكان ذلك اليوم يوم سعادة ويوم سرور لتلك القلوب التي صدمتها حوادث الشهر المنصرم صدمات عنيفة.

وأخيرًا وقبل الانصراف قال إبراهيم:

- ومتى عوّلت غريبة على السفر. فقال أحمد وقد رنا إليها بلحظ ملؤه العطف والحنان.

- يوم الجمعة الآتي. أليس كذلك يا غريبة؟

فأجابت وقد أخذ صدرها يعلو وينخفض وتورد خداها.

- نعم ذلك ما لا بد منه! فقال إبراهيم:

- إذًا اسمحوا لي أن أقابل إحسانكم ولطفكم بمثله. وأن أسعى في

إحداث يوم سعيد كهذا. فأرجو منكم تناول طعام الغداء معي في القدس على أن نذهب من هنا في سيارتي يوم الجمعة. فنودع غريبة مدرستها ونرجع سوية. فسُرُّوا بذلك وأخذوا يترقبون حلول ذلك اليوم.

ومرّ الأسبوع بسرعة والاجتماع تلو الاجتماع والسرور سائد على الجميع إلَّا نكسات كانت تمر بأحمد فتسلم نفسه لليأس والقنوط. ولكنه كان يخفي أمره هذا ويقاوم هذه المفاجآت النفسية. وكان يعزي نفسه بأنه هو الذي يريد أن تكون غريبة لمن تختاره لنفسها. وإذا كانت الدلائل تشير إلى حب متبادل بينهما ألّا يكون ذلك وفق رغباته. وأي رجل أكرم من إبراهيم نفسًا وأحسن خلقًا وأرقّ ذوقًا وأقدر على إسعاد من أحبّ. ولو كانت هي تحبهما على السواء فأيهما أقدر على إسعادها؟ هو بلا ريب. والفوارق الاجتماعية والدينية؟ لقد عرف أفكار إبراهيم ومبادئه في هذا الشأن فعنده أن المرء ابن نفسه وأن الصالح العام يقضي بألَّا تكون فوارق دينية في القومية الواحدة. فانتقاله من النصرانية إلى الإسلام أمر واقع غدًا أو بعد غدٍ. وإذن فلا مانع لإبراهيم. فليتقدم وليطلب فيلبي طلبه. هذا ما تقتضيه سعادة غريبة وهذا ما يقتضيه واجب الأخوة والولاية. ومن يدري لعلّ العناية الإلهية هي التي تدفع بغريبة بين يدي إبراهيم ليكفّر الابن بإسعاد البنت عما اقترفه الأب نحو الأم!... ولكن هو؟ حبّه؟ قلبه؟ ليترك التفكير في هذا الأمر! وليفعل الله ما يشاء فقد آمن به ووثق منه وهو نعم المولى وهو نعم الوكيل!

إلى القدس

اندفعت سيارة إبراهيم تسابق الريح نحو بيت المقدس. وقد استلم هو دفتها. وجلس أحمد بجانبه. وقعدت غريبة وراء أحمد والوالدة وراءه. وخرجوا من حدود المدينة ودخلوا السهول. وأخذت غريبة تسأل عن تلك البيوت الخشبية وغير الخشبية المنبثّة في السهول بغير انتظام وكأنها صاعقة انقضّت من السماء. فشوّهت منظر ذلك السهل الواسع المنبسط من تحت أقدام الجبال الشاهقات إلى البحر.

فقالت أم أحمد إنها تذكر هذه السهول وهي تموج ببساط زبرجدي تطل عليه القرى من ارتفاعها في أطراف الجبال حتى لا تشوبه شائبة.

وتندفع فيه قطعان المواشي والأنعام. سادرة في غلوائها معتزة بقوتها. مختالة بسيطرتها. أما الآن فالسهول مكفهرة تعلوها غبرة وسائل النقل الجديدة. وقد انتثرت فيها تلك البيوت الخشبية العتيقة وتبدل سكونها بضجّة، وأمنها بخوف. وتقطع فيها ذلك البساط الزبرجدي الواسع. بطرق معوجّة. هي في الصيف للعمى وفي الشتاء للغرق. وماذا جرى لها؟ وماذا أصابها وماذا حل بأهلها؟ فأجابها إبراهيم وقد امتلأ قلبه حزنًا وأسى وظهرت على وجهه سيماء الغضب وانطلق لسانه ببلاغة عرفها رفاقه في السيارة وقال:

- سَلِي عنها يا أم سرسق وخوري وريس والحسن والصالح وغيرهم! سَلِي عنها هؤلاء وأولئك الذين نضب ماء الحياة من وجوههم والدم العربي من عروقهم والرحمة من قلوبهم والنخوة من

رؤوسهم. فسعوا في بيع تراث آبائهم المقدس لأعداء بلادهم، وقذفوا بمواطنيهم، الذين إنما سادوا وأثروا بهم وبعرق جبينهم، في الفضاء الواسع فإذا هم أشلاء تجدينها يا أم في الطرقات العامة، وفي مواخير الفساد وفي أوكار الشقاوة. لقد باعوا هذه البلاد المقدسة، وأنفقوا ثمنها على موائد الميسر وفي حانات الشرب وفي مواضع الشبهات والفسق والفجور.

واندفع إبراهيم بحماسة يتدفق كالسيل الجارف، وحدق فيه الرفاق الثلاثة معجبين غاضبين. وانتبه أحمد إلى أن الإكثار من ذلك يهزّ أعصاب إبراهيم ويؤذيه فقال:

- ألم نأتِ اليوم لنتمتع بذكرى الحسنات وننسى السيئات، لنترك هذه الذكريات البائسة لتقتص هي من أصحابها وتقضّ مضاجعهم وتهصر أفئدتهم وتتركهم للناس والتاريخ عبرة لمن اعتبر.

وصمت إبراهيم وساد السكون على الجميع. والرجلان يصوبان بأنظارهما إلى الأمام، والوالدة ترنو إلى ابنها بإعجاب وسرور وأمل، وغريبة، وقد اتخذ لونها وأمارات وجهها سيماء تلك الحالة النفسية التي تخلقها مثل أقوال إبراهيم في كل نفس حيّة غير مريضة، التصق نظرها بإبراهيم فلا تطيق عنه تحويلًا. وأخذت السيارة تطوي الأرض طيًّا حتى اخترقت بهم جنين نحو نابلس. وعاد إبراهيم إلى كلامه فقال:

- والآن نحن في الأمان، في هذه المنطقة العربية التي لم يدنسها

أهلها بالبيع ولا العدو بالاحتلال الحقيقي. هنا يا أم لن ترين تلك الأشكال المنوعة من بني البشر الذين يقذفهم إلينا البحر وتلفظهم الأمم. هنا لا تزال البلاد بلادًا والأهل أهلًا والسهول سهولًا، فهذه المواشي تسير بخيلائها، والسكان مغتبطون آمنون. وذلك على فقرهم المدقع والظلم الواقع عليهم من تكاليف الحكومة الباهظة ومن مساوئ الحكم الأجنبي.

- ثم انتقل إلى سرد الحوادث التاريخية المتعلقة في الأماكن التي مروا بها بلفظ عذب وسهولة جذابة. وقد وضعت الوالدة يديها على ظهر مقعده وأدنت رأسها منه كي تستمع ما يقول. وفعلت غريبة ذلك. فكان كلما أدار رأسه شعر بأنفاسها الحارّة تتصل بوجهه فتزيده نشاطًا وحبورًا ورقّة.

ولما دنوا من مدينة نابلس قال:

- هذه هي المدينة الكبرى الوحيدة التي خلت من الغاصبين. فهي لا تزال بيضاء وأهلها آمنون! وكان ذلك بفضل تضامنهم في الوقوف في وجه الغاصبين الذين حاولوا الاجتياز إليها فرُدُّوا خاسرين. فلقد حاول اليهود أن يرسلوا إلى هذه المدينة منهم من يقطنها ويزاول أعماله فيها كي يفتح الباب لغيره، ثم يندسُّوا بين أهلها قليلًا قليلًا. حتى يستفحل أمرهم ويصبح ردهم من المستحيل. فقام رجل من أثريائهم أنعم عليه الله بسعةٍ في اليد وإيمان في القلب ونخوة في الرأس. فجعل ديدنه مقاومة تلك المحاولة. فكلما استأجر اليهود

مكانًا لسكنهم أفسد سعيهم واستأجر هو ذلك البيت وأبقاه خاليًا على نفقته. حتى ضاق اليهود ذرعًا به ورجعوا خاسرين.

لقد ضحّى ذلك الرجل الطيب الذكر قليلًا من ماله ولكنه ابتاعَ له بذلك الذكر الحسن والسمعة الطيبة والأثر الباقي. فلا تجد اليوم رجلًا في البلاد يذكر اسم الحاج حافظ إلّا بالحسنى وطلب المغفرة. لقد مات الحاج حافظ وترك ماله وأملاكه كل ما جنت يداه ولم يبقَ له منها غير تلك الدراهم المعدودة التي قاوم بها استعمار نابلس من قبل اليهود. فكم هناك من فرقٍ بين هذا وبين من باع وطنه ببيع أرض وشتّت مواطنيه بتشتيت زراعها فلم يبقَ له في الحياة وبعد الممات غير اللعنات!

ثمّ ساد الصمت على الركاب، وأخذ هواء الجبال العليل يدخل إلى نفوسهم نشوة الغبطة والرضى والسعادة. وحانت من إبراهيم لفتة إلى الوراء فرأى غريبة ترنو إليه بنظرات هي الحبّ الطاهر والرقّة والحنان. فأطلق لنفسه العنان وقابلها بمثل نظراتها وسكتت الألسن. وتكلّمت الأعين بما هو أبلغ مما يقدر اللسان على التعبير به. وتصارحت القلوب وتعاقدت على الحبّ الطاهر. وكل ذلك في لحظة مختلسة! وعادت تلك اللحظة فتكرّرت مرّات عديدة. والوالدة تبذل جهدها لمقاومة النعاس وقد أثقل النسيم به جفنيها. وأخذ أحمد ينتبه إلى تلك الحركة أولًا وثانيًا وثالثًا. فجمد نظره نحو الأمام، وأخذ العرق يتصبّب من جبينه، واشتعلت في قلبه نار الغيرة وأخذت أطرافه ترتعش! ماذا يصنع؟ أيصيح بهما فيقف حاجزًا بين تلك النظرات؟!

أيوقف السيارة ويأخذ بتلابيب إبراهيم ويلقيه على الأرض بلا حراك كما فعل بوالده؟! أيتقدم إليها ويقول «أنا أحبّك، أنت لي لا لغيري، أنا أولى بك من كل إنسان؟!» وماذا يفيد كل هذا؟ أيربح به قلبها؟ أيكتسب رضاها؟ أيزيل حبّها؟ لا لا! بل إن ذلك يجرحها معًا. ويشعل في قلبها نار الثورة ضد استبداده ويوقد في قلبه نار الغيرة منه فيخسر قلبين. ويسيء إلى أخين، دون أن يتقدم خطوة نحو غايته!

همدت نيران تلك الثورة في أحشائه. بل أخذت أفكاره ترتاد وجهة أخرى! لماذا يقاوم القضاء؟ لا سيما إذا كان فيه مصلحتهما؟ أيكون حاسدًا فظًّا لئيمًا أنانيًّا؟ أم أخًا كريمًا؟ أيكون أخ إبراهيم أم عدوّه؟ لا لا! إنّ الله يريد هذا. وإن العناية الإلهية تهيئ هذه الأمور لإسعاد هذه اليتيمة المعذّبة فكيف يقف في سبيلها؟ .... وحبّه؟ وقلبه؟ ونفسه؟ لعلّ الله يهيئ له ما هو أوفق لنفسه! فيجب أن يزول ذلك الحب! ويسكن خفقان ذلك القلب! وتغتبط تلك النَّفس بما قُدّر لها.

وسارت الآلة الصمّاء تطوي البيد طَيًّا. وسلّم أحمد نفسه للمقادير. وسلّمت الوالدة نفسها للنوم. وسلّم الآخران نفسيهما للحبّ. وبعد لأي دخلوا القدس أربعة في سيارة وكل تائه في بيدائه. فغريبة في نعيمها وإبراهيم في آماله وأحمد في يأسه وقنوطه والوالدة في البنايات الضخمة.

وأنزلهم من السيارة زمرة من الخدم ذوي ألبسة خاصة. ودخلوا النزل، وأمرهم إبراهيم أن تخلى لهم غرفتان كي يصلحوا شؤونهم قبل الطعام.

ولما أن أزالوا عنهم وعثاء السفر تقدموا إلى مائدة نصبت لهم خصّيصًا في مكان مرتّب أنيق. ودهشت غريبة لفخامة المكان، وحسن ترتيبه وتنسيق فرشه واستكمال حاجاته، وقالت:

- إنهم سعداء أولئك الذين يعيشون في مثل هذا المكان. وقال إبراهيم:

- إن السعادة وليدة النفس لا هذه الأشياء الصمّاء. وقال أحمد:

- ولكن هذه تهيئها وتساعد صاحبها على الاحتفاظ بها.

وجلسوا يتجاذبون أطراف الأحاديث، وأحمد صامت يفكر! ها هي غريبة ترى سعادة في العيش في مثل هذا المكان. أفي قدر هو على إعاشتها في مثله؟! وقالت غريبة وقد أعجبت بملابس بعض قاطنات ذلك النزل:

- ما أجمل ما يلبسن!

وقال إبراهيم:

- إن أجمل اللباس الصحة!

وقال أحمد:

- واللباس الجميل يظهر الجمال ويحتفظ به ويزيد روعته في النفس. ورجع إلى نفسه فقال: «وهل أقدر على إلباسها مثل هذا؟!»

وانتهوا من طعامهم الأنيق، وتقدم إبراهيم ينفح الخدم بما تجود به نفسه الكريمة. فقالت غريبة:

- ما أنبل الكرم!

وقال أحمد:

- ليس أنبل من غني يعطى! ثم قال لنفسه: «وهل لديّ ما أعطي كهذا كي أصبح نبيلًا في نظرها؟»

ذهبوا إلى المدرسة. وهناك أفاقت غريبة من حلمها اللذيذ. فأخذت الدموع تنهمر من عينيها وأخذ الآخرون يهونون عليها لوعة الفرقة. وإنما هي أشهر ويعودون إلى اللقاء. وتعود السفرات المتكرّرة والتصعيد في الكرمل. فلتهدئ من روعها.

وتقدمت إليهم في النهاية بادية العزيمة. وقالت:

- لقد تركت هذا الباب وأنا وحيدة في هذا العالم. وهأنذا أعود ولي أم وأخ وصديق فأنا سعيدة! أنا سعيدة!

واختفت في أروقة المدرسة نحو فرع البنات.

أما الثلاثة فقد استقلوا السيارة ورجعوا والصمت يسودهم، والحزن يعلو وجوههم، وقد أحسُّوا الآن والآن فقط بتعب السفر. وقعد كل منهم كئيب النفس، مثقل القلب. فأحمد في يأسه، وإبراهيم ببعاده، والوالدة في أسفها لانتهاء ذلك اليوم السعيد وفراق تلك الصغيرة.

المساعد أحمد أفندي

انهال أحمد على أعماله الجديدة كالجبار يلقي بنفسه في معركة حامية الوطيس ينفذ تعليمات رئيسه بدقّة وأمانة وذكاء. وهو بذلك الانهماك يرغب في التعب لينسى حبه، وينجز أعماله حتى لا يكون عبئًا على إبراهيم بل ليصبح مساعدًا كفئًا لمرتبه ومرتبته. وانهال إبراهيم على تعليم أحمد وتدريبه يريد من هذا مقابلة إحسانه بإحسان. ومضت الأيام والشهور وأحمد يتلقف دقائق أعماله يجمع نفسه ويبذل في تفهمها وإتقانها كل قواه. حتى كان له ما أراد وسمع الإطراء من عملاء رئيسه وزملائه. أما إبراهيم فقد كان يزداد كل يومٍ إعجابًا بصفاته وذكائه ومؤهلاته لا بل شعر أنه باستخدام أحمد قد نفع نفسه زاد رواج أعماله رواجًا. وقرر أن يزيد في مرتبه.

وذلك الحبّ الخائب فقد بدأ يتبدل بين جوانح أحمد من حب جنسي إلى حب أخوي. فزاده ذلك ارتباطًا بإبراهيم ووثوقًا به واتكالًا عليه. أما حبّ إبراهيم فقد صار عبادة. فهو يريد أن يعرف جميع أخبارها ويقرأ جميع رسائلها. وإذا اجتمع بأحمد وأمّه خارج العمل فلا يريد أن يتكلم إلّا عنها.

ورجع الاثنان ذات مساءٍ من الناصرة حيث كانا في عمل لهما. وذكرا زيارتهما إلى القدس وتحادثا بأمور غريبة ومستقبلها. فقال أحمد فجأة:

- وهل يهمّك مستقبل غريبة؟

- مـا دام يهمك ذلك!

- فقط؟

- فقـط! إلّا إذا أردت أنت أكثر من ذلك.

- أيحتـاج الأمر إلى إرادتي أم إلى إرادتها؟

فاحمـرّ وجـه إبراهيم وقال بدون أن ينظر إلى مخاطبه:

- لا بـل إرادتك أولًا وإرادتها ثانيًا.

- إن إرادتي مربوطـة بإرادتها.

فاهتزّ إبراهيم بنشـوة الأمل وقال:

- أحمــد أحمــد! إنــك طيّــب القلــب إلى درجــة التقديــس! إن هــذا التسـامح وهـذه التضحيـة وهـذا النبـل وهـذا الشـعور كلـه لا يوجـد في البــشر!

ثم أوقف السـيارة في منتصف الطريق وأكمل كلامه قائلًا:

- قـل يـا أحمـد هـل أنـت بـشر أم ملـكٌ كريـم؟! وألقـى برأسـه عـلى صـدر أحمـد. وأخـذ ينتحـب كالطفـل عـلى صـدر أمـه. وضمّـه أحمـد بـين ذراعيـه وصمـت الاثنـان! يـا لهـا مـن برهـة مـرّت كأنهـا ثانيـة مـن الثـواني غـاب فيهـا الشـابان عـن الوجـود. الواحـد هائـم في حبـه وآمالـه والثـاني مغتبـط بتضحيتـه وكرمـه! وإذ بأبـواق مـن الـوراء تنبههـما إلى

فتح الطريق الذي سداه بسيارتهما. فأفاقا من حلمهما اللذيذ وتابعا السير. وقال أحمد:

- والمسألة الدينية هل فكرت فيها جيدًا.

- نعم فكرت وعزمت أن أجعل من هذه الحادثة ثورة على النظم العتيقة. وحدًّا فاصلًا بين عصر الطائفية وعصر القومية الصحيحة! إن فكرة الانتقال هذه تجول في رؤوس الكثيرين من شبابنا الذين تحققوا من مطامع المستعمرين وعرفوا ما يبغونه من حماية الأقليات والانتصار للضعفاء. وملُّوا تلك الحالات التي كانوا فيها الحجّة للغاصبين في استعباد بلادهم واستذلال أبناء أمتهم. لا بل كرهوا للدين الصحيح والإيمان بالله أن يستعمله الطامعون من دول الغرب لإشباع نهمهم وسدّ جشعهم. ولذلك فهم ينتظرون أن ينبري منهم رجل يتخذ لنفسه صفة القيادة بأن يدفع ثمنًا لهذه التضحية بتلقي نتائج الصدمة الأولى التي سيقوم بها المتعصّبون والرجعيون والمرتزقة والمأجورون. وإني ليحلو لي أن أتلقى هذه الصدمة بدون أجر ولا غنم سوى الشعور بلذة التضحية في سبيل الصالح العام. فكيف إذا كان في الصفقة مثل هذه الجوهرة الثمينة والكنز العظيم؟

- وأبوك؟

- أبي؟ له عليَّ أن أبرّ به ولكن ليس له أن يسيطر على قلبي وضميري وإيماني!

- وماذا عوّلت أن تصنع الآن؟

- إني أريد منك أن تجيب على هذا السؤال. فالأمر منك وبيدك وفي كلمة منك سعادتي وفي أخرى شقائي!

ساد الصمت مرّة ثانية. وقبل أن يفترقا قال أحمد:

- ستأتي غريبة بعد شهرين بعد أن تكون قد أنهت دراستها. ومتى جاءت يكون لها الخيرة فيما اختاره الله، وعليّ الموافقة.

من مدرسة الأيتام إلى مدرسة العالم

اليوم الرابع من تموز عام ١٩٣٠. انطلق قطار اللد ـ حيفا متجهًا نحو الشمال ينهب الأرض نهبًا. ووقفت في نافذة غرفة صغيرة من غرف عربات الدرجة الثالثة فتاة ممشوقة القدّ متوفرة الصحة والجمال، تتلقّى نسيم البحر باغتباط وسرور وتمدّ طرفها في السهول وقد سادت على وجهها سيماء الرضا والطمأنينة. تلك هي غريبة وقد أتمّت مدرسة الأيتام وأرجعت إلى وليّ أمرها، وهو الآن أحمد الواسطي بعد أن شاخ وليّها الحويطي وانقطع للاهتمام بنفسه وشيخوخته. هي اليتيمة تخرج من المدرسة إلى العالم فماذا ينتظرها فيه؟ أخذت تفكر وتفكر. وبماذا؟ بأحمد؟ لا! بل بإبراهيم! وكيف تفكر فيه؟ وهل يجوز لها ذلك؟ إنه يحبها ولكن أيّ حبّ؟ والموانع والفوارق؟ هي فقيرة ويتيمة ووضيعة، وهو غني من بيت عريق في الحَسَب والنَسَب. وقد نال في البلدة وجاهة، ونصبت له الأمهات ممن هن في مرتبته وعلى نسقه شراكهن لاجتذابه نحو بناتهن. فهل يترك كل هذا ويضحيه من أجلها ويسلم من الوقوع فيه والانسياق إليه؟ ثم الفارق الديني أليس ذلك بكافٍ لجعل حبّهما عقيمًا؟

ذهبت تلك الابتسامة عن ثغرها اللطيف وتنهّدت. ولكنها عادت فأقصت عن مخيلتها تلك الأفكار وأطلقت نظرها بعيدًا في الأفق. فهي لا تريد أن تفكر الآن إلّا به وبحبّه. أما هذه الفوارق وأما هذه الموانع فأحمد أولى بالتفكير فيها. هو وليّ أمرها وهو أعرف منها بما تقتضيه أمورها. وما سوف يقول لها فسوف يكون. وإن امتنع عنها

مـا تريـد، فكفـى أن تحتفـظ لـه بالحـبّ الخالـص وترجـو لـه السـعادة وترقـب أخبـاره بلهفـة، وقـد تـراه مـن وقـتٍ إلى آخـر بطبيعـة ملابسـة أعـمال أحمـد بأعمالـه. ولكـن أحمـد؟ إذا طلبهـا كـما ذكـر لهـا الحويطـي سـابقًا! فـماذا تصنـع؟ تقـول لـه في الحـال أنهـا أختـه ولا تريـد إلّا أن تكـون كذلـك. ولـن تكـون لغـيره، أيضًـا، مـا دام قلبهـا ليـس بيدهـا! وإن بقيـت كذلـك فلـن تكلـف أحمـد كثـيرًا. إنهـا تشـتغل بالتعليـم أو بالخياطـة. فقـد قالـت لهـا مديـرة المدرسـة أنهـا تصلـح جـدًّا لهذيـن العملـين وإن في نفسـها وذوقهـا اسـتعدادًا لأي منهـما يؤهلهـا للنجـاح.

ومـرّت سـاعات وهـي غارقـة في هـذه الأفـكار وإذ بالبـاب يقـرع. «بيليـت. المحطـة الآتيـة هـي حيفـا» أعطتـه البطاقـة. وأصلحـت ملاءتهـا وأنزلـت حقيبتهـا فوضعتهـا بجانبهـا اسـتعدادًا للنـزول وقعـدت تنتظـر.

تـرى مـن يكـون عـلى المحطـة في انتظارهـا؟ أحمـد والوالـدة؟ مؤكـد. وهـو؟ لا لـن يـأتي! إنـه منهمـك بأعمالـه فهـل يهتـم بهـا إلى درجـة أن يـترك أعمالـه وزبائنـه ومقاوليـه مـن أجلهـا؟ ولكـن حركاتـه؟ وذلـك الارتعـاش الـذي كان يتنـاول أطرافـه كلـما نظـر إليهـا؟ ثـم تلـك النظـرات؟ أليسـت كلهـا دليـلًا عـلى حـب عميـق؟ ربمـا كانـت واهمـة! بـل ربمـا كانـت هـذه عادتـه مـع كل النـاس وأمـام كل فتـاة. إنـه لـن يـأتي إلى المحـة ولكـن سـيزورهم غـدًا في البيـت ومـن أجلهـا. وهـذا كاف!

ودوّت صفّـارة القطـار، وعـلا الضجيـج وتوقفـت القاطـرة وإذا هـي تجـد نفسـها فجـأة عـلى الرصيـف وعـن يمينهـا أحمـد وعـن يسـارها إبراهيـم

وأمامها الوالدة. وكلهم يتكلم وكلهم يضحك. ولكن ماذا يتكلمون ولماذا يضحكون فذلك لم تكن لتعرف! كانت في غيبوبة الحبّ وذهول المفاجأة لا تدري ما يُقال لها ولا ما تقول!

واستقلوا السيارة وأطلقوها نحو الكرمل. وهي تائهة ذاهلة تجيب عن أسئلتهم دون أن تفهمها فتخطئ القول فيرتبكون ثم يضحكون وتضحك هي معهم دون أن تعلم لماذا يضحكون! ووقفت السيارة أمام نزل شائق يشرف على منظر لم تقع عيناها على مثله. ونزل الأربعة إلى مكان خاص أعدّ لهم فيه طعام فاخر بدعوة من إبراهيم بك فجلسوا إلى المائدة ليفتتحوا دخولها من المدرسة إلى العالم بحفلة سرور. قالت غريبة:

- وهل هذه عادة عامة؟

فأجاب أحمد:

- لا بل هي خاصة بمن يكتسبون احترام الناس وحبهم كما أحرزت أنت! فاغرورقت عيناها بالدموع وشعرت أنها لم تعد باليتيمة وأن لها أهلًا وأصدقاء يحبونها ويجلّونها مثلما يحب الناس أولادهم.

أتموا طعامهم وقاموا عن المائدة فرحين مرحين وقد ازدادت بينهم أواصر المحبة. فأحمد روّض نفسه على احترامه وحبه الأخوي، وقتل في نفسه تلك العاطفة الجنسية، وإبراهيم أطلق لحبه العنان وطار في خيالاته ورقّ في حنانه حتى بانت آيات الوله والتدلّه في نظراته

وحركاتـه والفاظـه. وأمـا غريبـة فقـد اسـتقامت سـيدة لهـا قيمتهـا بـين النـاس ولهـا حبهـا في قلـب أحسـن المحبـين وأطيبهـم، واحترامهـا لـدى أقاربهـا، فاعتـزت بهـذا الشـعور الجديـد ورفعـت رأسـها، ونفضـت عنهـا ذلـك الشـعور الـذي يحـس بهـا الأدنـون بـين الأعلـين مـن النـاس. وإذا هـي في مجمـوع صفاتهـا وردة قـد تفتحـت ونـثرت عـلى النـاس شـذاها فجذبـت إليهـا الأنظـار وأتلعـت إليهـا الأعنـاق.

مـرّ عـلى هـذه الكتلـة السـعيدة مـن النـاس أسـبوع تقلبـوا فيـه عـلى أحضـان السـعادة. فنسـيهم الدهـر المـؤذي وغفلـت عنهـم الأيـام السـوداء.

وكان عـلى إبراهيـم أن يفاتـح غريبـة بأمـره حتـى إذا أقرتـه طالـب أحمـد بيدهـا. وكان عـلى أحمـد أن يوافـق عنـد رضـاء غريبـة بإبراهيـم بعـلًا لهـا. وقـد وجـد إبراهيـم سـعادةً ممتعـةً في تلـك الأيـام فلـم يشـأ أن يـأتي بأمـرٍ جديـدٍ حتـى يكـون قـد تمتـع بأكـبر قسـطٍ منهـا قبـل الانتقـال إلى غيرهـا مـن مراتـب السـعادة.

الوالد المعذّب

انتهت قضية أحمد، واستخدامه في مكتب إبراهيم، وسفر هذا إلى القدس مع أحمد وعائلته. وأحكمت أواصر تلك العلاقة المتينة بين الشابين. كل هذا وذلك الوالد المعذّب أميل بك المدير، يرقب ويستعلم ويفكر. فتحقق أن ولده متيّم بغريبة. وتأكد مما يعرفه من أخلاق ولده أن هذا الحبّ سينتهي بالزواج إن لم يقف هو في سبيله. ولكن كيف ذلك أيطلع ابنه على سرّ هذه الفتاة؟ لا أن ذلك يدفع بابنه إلى القنوط منه والزهد فيه والتحول عنه. يجب أن يتدبر في الأمر بتؤدة وتعقُّل فيصل إلى طريقة ناجعة تحول بين الأخين بدون علم أحدهما بما يرتب. عمد إلى التفكير العميق. وتوصل إلى الطريقة. وقبل أن ترجع غريبة إلى حيفا، بدأ بالتنفيذ.

***

اعتادت أم أحمد أن تذهب عصر كل يوم للنزهة في مكان حسن المناظر، عليل الهواء على سفح الكرمل. وكانت تجد هناك الكثيرات من معارفها وغير معارفها فيجلسن حلقات يتجاذبن أطراف الأحاديث، ويتلقفن من بعضهن أخبار البلدة، وقد تعرّفت في المدة الأخيرة بسيدة طيبة القلب، كريمة النفس تدعى فدوى، كانت تجالسها وتعطف عليها، ثم أخذت تمرّ على بيتها بحجة أنه يقع بين بيتها هي وسفح الكرمل.

ولما عادت غريبة تقدمت فدوى غليها بلطفٍ وحنان، وأظهرت لها محبة فائقة وإعجابًا كبيرًا، وأخذت تكثر من زياراتها في الصباح عندما تتيقن عدم وجود أحد الشابين. وجلست صباح يوم في آخر ذلك الأسبوع الممتع بجانب غريبة، وكانت أم أحمد مشغولة في البيت، وأخذت تتفرس في وجهها وتطري جمالها وأخلاقها. وقالت فجأة:

- لم أرَ يا حبيبتي في هذه البلدة سيدة تعادلك بمحاسنها غير خطيبة إبراهيم بك المدير.

فانتابت غريبة هزّة كهربائية، وشعرت أن صاعقة انقضّت على رأسها. وحملقت عينيها وقد علا وجهها الاصفرار وقالت بصوتٍ مرتجف:

- خطيبة من؟

- إبراهيم بك المدير بن إميل بك المدير.

- لا لا. لعلّك واهمة أن إبراهيم بك هذا لا خطيبة له مطلقًا.

- بلى يا بُنيّتي! ولكن ما بالك اضطربت لسماع ذلك. اعذرني! هل أسأت إليك؟ إني لم أظن أن خبرًا عاديًّا مثل هذا يؤذيك فالناس كلهم هنا يمتدحون جمال تلك السيدة. وإني لم أنتقص من جمالك ولم أقل إلّا أنها تعادلك في جمالها أفي ذلك ما يسوؤك؟

- لا لا إنما أنا.... كنت أظن أن إبراهيم بك المدير.... لا خطيبة له ولذلك استبعدت هذا الخبر! هذا كل ما هنالك.

- الأمر بسيط يا بُنيّتي. أنت عرفت إبراهيم بك قبل سنة أي منذ أن تعيّن ابن عمك في مكتبه. وقد تمت الخطبة في منتصف هذه السنة. وكانت الخطبة سرية في الأول لأسباب عائلية. أما الآن فقد علنت لبعض الناس ولهذا لا يعرف بها إلّا القليلون. وقد اتصل بي خبرها لأني جارة إبراهيم بك ولي اتصال ببعض أقاربه أما السيدة فمعروفة عند أكثر سكان هذه المدينة لفرط جمالها. فإذا أحببت رؤيتها فما عليك إلّا أن تأتي لزيارتي حول الساعة الثالثة من بعد ظهر أي يوم فترينهما يخرجان معًا من اليت. لأنها في أغلب الأيام تتناول معه طعام الغداء وتصحبه إلى المكتب بعد ذلك ثم تعود إلى بيتها.

فقالت غريبة واليأس يكاد يخنقها:

- نعم أحب أن أراها معك لوحدي.

- وفي أي يوم تريدين؟

- غدًا إن أحببت.

- غدًا! كما تريدين. انتظريني في الساعة الثانية بالضبط في أول هذا الشارع فنذهب سوية، وإني مسرورة جدًّا من هذه الزيارة.

- أشكرك!

خرجت تلك المرأة نشوانة بظفرها الهيّن. واشتعلت نيران الغيرة والغضب في قلب غريبة، وقضت يومها منفردة عابسة تشعر بصداع شديد.

ونهضت في اليوم الثاني مبكرة دون أن تذوق طعم الراحة، وأخذت تتلهّى بشتى الأمور وتدّعي بصداعها الشديد حتى كان وقت الغداء، فلحظ منها أحمد اكفهرارًا في وجهها، وتوترًا في أعصابها، وتهيُّجًا في حركاتها! ولكنه عزا ذلك إلى صداعها ورجاها بأن تستشير الطبيب. وبهذه الحجة نفسها تركت البيت حول الساعة الثانية بعد الظهر والتقت بفدوى في رأس الشارع وسارتا مسرعتين إلى بيتها.

وقعدت غريبة في نافذة من تطلّ على باب بيت إبراهيم بك المدير وكانت قد مرت به وعرفته سابقًا، ورأت سيارته بانتظاره خارجًا، وقد امتقع لونها وتصبّب العرق البارد من وجهها وعقد لسانها والتصقت عيناها في باب ذلك المنزل فلم تعد ترَ غيره. وحول الساعة الثالثة فتح الباب وخرجت منه فتاة أنيقة الملبس، جميلة الطلعة! ومشى وراءها إبراهيم. فأسرعت دقات قلبها وازداد اصفرارها وأخذت تتفرّس بهما! هو هو بعينه، وكان فرحًا مسرورًا، وكانت السيدة كثيرة الغنج والدلال تتلفت إليه وتميل عليه، وتأتي من ضروب التحبُّب ما لا يدع مجالًا للشك في أنها تحبه وهو يهواها وأنهما عاشقان يتمتعان بسعادة الحب.

رأت غريبة ذلك وأحسّت بدوار شديد، وأسدلت أمام عينيها غشاوة، وانقلبت في نظرها الدنيا ظهرًا لبطن، وغابت عن الوجود، وأقبلت عليها فدوى تكسو وجهها بقبلات حارّة، وتسعفها بالماء البارد والروائح العطرية المنعشة حتى فتحت عينيها وطلبت الخروج، فساعدتها على النزول من البيت وأوقفت سيارة ركبت بها معها إلى البيت، وقبل أن تفترقا رجت غريبة هذه المرأة برغبة شديدة أن تكتم تلك الحادثة وتلك الزيارة خشية أقاويل الناس. فوعدتها فدوى بذلك فرحةً مسرورة فقد كان هذا طبق خطتها تمامًا.

وجاء إبراهيم مع أحمد في المساء فقد ذكر له هذا أمر صداعها، غير أن غريبة اعتذرت عن مقابلته بصداعها الشديد ولازمت فراشها، فرجع حزينًا كئيبًا، وعاد في الصباح يسأل عن صحة فتاته، فقابلته ولكن بفتور ظاهر وعدم اكتراث، وكانت شاحبة اللون زائغة البصر كثيرة التفكير، حتى داخلته الظنون فرجع إلى المكتب مع أحمد دون أن ينبس ببنت شفة. بل كان يفكر في تلك الظاهرة الجديدة في سماء حبه. ويحسب لها ألف حساب.

فلما افترق عن أحمد ظنّ أنه توصل إلى سبب ذلك الجفاء. يظهر أن أحمد كلمها بأمره وبحبه وبموافقته هو إن كان ذلك يرضيها. فصبرت عليه أسبوعًا كي يفاتحها بما يريد. فيرتبط القلبان ارتباطًا لا انفصامَ بعده. فلما لم يكن شيء من ذلك، خاب ظنها واستولى عليها ملل الانتظار. وأخذت تظن به الظنون. ما أجهله وأبعده عن شرعة الإنصاف! لقد كانت تنتظر كلمة طيلة هذه السنة. فلم تكد تدخل

حيفا حتى أمَلَت أن يفاتحها بحبه ورجائه ولكنه لم يفعل. فالخطأ منه فيجب أن يصلح ما أفسد في الحال!

وجاء أحمد من العمل عند الظهر فقال له إبراهيم إنه يود أن يتناول طعام الغداء عنده فسرّ لهذا الخبر. ثم استقلّا السيارة إلى البيت.

وكانت غريبة على مائدة الطعام صفراء الوجه كاسفة البال. تتظاهر بالأكل وهي لا تأكل شيئًا. وأخذت أم أحمد تمازحها وأحمد يقصُّ عليها ما رآه وسمعه في ذلك اليوم فلم تضحك ولم تبتسم ولم تكترث. وكذلك إبراهيم فقد عقل لسانه. وقعد يفكر في هذا اللغز وقد أحسّ أن في الأمر حادثة غير ما فكر.

فلما قاموا عن المائدة إلى غرفة الاستقبال جلس إبراهيم بجانبها. وشعر أحمد أن الساعة قد أزفت فتشاغل مع أمه خارج الغرفة. وبعد صمتٍ طويل قال إبراهيم بصوتٍ رقيق:

- بماذا تفكرين يا غريبة؟ فأجابت بصوتٍ مضطرّب مرتجف:

- في هذه الدنيا.

- وكيف تجدينها؟

- على غير ما أمَلْت.

- ولماذا؟

- لأن الكذب فيها قام مقام الصدق! فانتصب إبراهيم على رجليه

وتحقـق أن الأمـر جـد لا هـزل. وأن مصيبـة جديـدة تنتظـره.

فقال:

- غريبـة غريبـة! لمـاذا تكلمينـني بالألغـاز؟ لمـاذا تعاملينـني بهـذا الفتور؟ وأنـت تعلمـين أن كلمـةً منـك تسـعدني وأخـرى تشـقيني، وإننـي علقـت بـك آمـالي ورجـائي، وإني قـد سـلمتك قلبـي و.....

- لا لا! لا تكلمنـي هكـذا! لا أقـدر أن أحتمـل هـذا. إن أذني لـن تعلـو عينـي وإن مـا أسـمع لـن يزيـل مـا رأيـت!

- ماذا؟ ما هو الذي رأيتِه. وما الذي سـمعتِه؟

- لا شيء لا شيء! إنمـا لا أحـب أن تكلمنـي هكـذا. إنمـا أنـا ابنـة فقـيرة ويتيمـة وأنـت رجـل كـبر لـك مـن هـم كفـؤك ومـن طبقتـك وعـلى نسـقك. فهـن جديـرات بـك وبـأن يسـتمعن إلى كلامـك هـذا. إن أذني لم تخلـق إلاّ لاسـتماع مـا كان قاسـيًا مرعبًـا! هـذه قسـمتي! هـذا حظـي في هـذه الدنيـا!

ذاب قلـب إبراهيـم لـدى سـماع هـذه العبـارات المملـوءة يأسًـا وقنوطًـا فقـال بلهفـةٍ:

- بـل أنـت التـي خلقهـا اللـه عـلى نسـقي، وجعلهـا كفئًـا لي، وفتـح لهـا قلبـي وكل جوارحـي! غريبـة! لا تكسري قلبـي بهـذا الـكلام. قـولي نعـم فتجعلنـي أسـعد وإلّا فاحكمـي عـليّ باليـأس والعـذاب! كلمـةً واحـدةً منـك تربطنـا إلى الأبـد، ويكـون لـك قلبـي وكل مـا ملكـت يـداي!

- لا لا! لا أقدر على كل هذا. لقد رأيت بأُم عيني. فأنت لست لي وكان من جهلي وحماقتي أن أنظر إليك وأطمع فيك ولست من طبقتي! قالت هذا و أخت تجهش بالبكاء. وسمعها أحمد فعاد إلى الغرفة حائر البال

ولكنه أشار إلى إبراهيم بالخروج وقال:

- ربّما أدهشها ما سمعت منك. فأنظرها قليلًا لتتحقق من وضعها الجديد.

وخرج إبراهيم لا يلوي على شيء تائهًا في هواجسه. مضطربًا في أفكاره متخبطًا في ظنونه وذهب توًّا إلى أبيه فوجده في البيت فقال مضطربًا:

- اصدقني يا أبي. هل قابلت غريبة؟

- أنا؟ لا يا بُنيّ مطلقًا أبدًا!

- ولم تجرِ نحوها أي عمل؟ فسرّ الأب لظهور بوادر نجاح مكيدته. وأجاب:

- لا يا بُنيّ! إنني لم أفهم ما تقول.

- اسمع يا ولدي. إن هناك مكيدة رتّبت لي بقصد إبعادي عن غريبة. فإن كانت من تدبيرك لسبب فيه صالحي فأطلعني على جلية الأمر، ولا تدعني أسير كالمعتوه التائه أفتّش عمّن ينصب لي هذه الشباك فانتهى إليك!

- ولـدي. هـل جننـت؟ أتظـنّ أني أتقصـد الإضرار بـك؟ لقـد قلـت لي مـرة واحـدة أن لا أتداخـل بشـؤونك الخاصـة. وهـذا يكفـي! إني لـن أسـألك عـن أي أمـر يختـص بقلبـك أو أتداخـل فيـه إلّا بطلبـك.

- كفـى يا والدي. تفاهمنا!

خـرج إبراهيـم حائـرًا مبلبـل الفكـر. إلى أيـن؟ إلى الجبـال ليفكـر ثـم يفكـر! إذا لم يكـن والـده فمـن؟ نـسي كل شيء في هـذه الدنيـا وبقـي هـذا السـؤال يـتردد في ذهنـه. وأخـيرًا توقـف عـن السـير فجـأة وقـد قطـب حاجبيـه. وغـرس أصابعـه في جسـمه! أيمـن أن يكـون هـذا؟ مـا أبسـط قلبـه! إنـه يظـن أن جميـع أبنـاء هـذا العـالم الفاسـد الغـارق في وحـول الأكاذيـب والأضاليـل مثلـه! الأمـر واضـح. لقـد أحبهـا أحمـد. فلـما رآه يزاحمـه عليهـا خادعـه. وخـرج مـن المعركـة منصـورًا! أو ليـس الحـق في جانبـه؟ ألم تكـن لـه؟ أليـس هـو الأوْلى بهـا وهـو ابـن عمهـا وولي أمرهـا مـن ابـن قاتـل أمهـا؟ نعـم! ولكـن لِـمَ تلـك المخادعـة لأخيـه؟ ألم يكـن الأوْلى بأحمـد أن يقـول لـه «إنهـا لي وكفـى» ألم يكـن قـد تخلـص هـو مـن حبـه العقيـم في بحـر هـذه السـنة بـدل التعمُّـق فيـه بالآمـال والوعـود؟ إن فأحمـد منافـق مخـادع سـافل! عليـه حـق الإغاثـة فليبـقَ في كنفـه، وتحـت ظلـه، ولكـن لـن يكـون بعـد اليـوم أخًـا لـه!

***

ومرّ أسبوع كامل وانقطع إبراهيم عن زيارة بيت أحمد وقد اتخذ لنفسه تجاهه خطة مشابهة وهي أن يحاربه بسلاحه فيخادعه حتى يظهر له كذبه ونفاقه.

وكاد إميل بك يطير فرحًا بنجاح خطته. وكان يراقب تأثيرها على ابنه عن كثب. وتنفس الصعداء وحمد الله أن رفع عن قلبه تلك الشدة على أهون سبيل. وأخذته نشوة الفرح وذهب لزيارة فدوى قريبة أمه وجارته ومنفذة خطته في المكيدة التي نصبها لإقصاء ابنه عن غريبة فلم يجدها في البيت ووجد ابنتها فأقبل عليها يشكرها على تمثيل ذلك الدور البديع الذي قامت به خير قيام. ويعدها بهدايا كثيرة عند إيابها إلى المدرسة وفي الأعياد. ومن يعلم لعلّها تصبح خطيبة ولده حقيقة بعد أن يمحق الله من قلبه ذلك الحبّ الفاسد. فقالت مدهوشة:

- إني لم أفهم ما تقول يا عمّاه.

- ما أقول؟ لقد دهشت لبراعتك ذلك اليوم في إظهار التودد لإبراهيم بشكل لا شبهة فيه مطلقًا.

- إنك تخجلني يا عمي بهذا الحديث فقد كنت أظن أن ذلك التودد كان سرًّا بيني وبين أمي!

- وأنا ثالثكما يا عزيزتي ولا رابع لنا إلّا الله!

- إذن خل لك في صدرك.

- نعـم يـا بُنيّتـي لا تخـشي شـيئًا. والحمـد للـه فقـد كانـت النتائـج باهـرة وسريعـة.

- وكيف ذلك؟

- يظهـر يـا بُنيّتـي أن تلـك الغـرة ذهبـت مـما رأت بفضـل لباقتـك. وفي اليـوم الثـاني قلبـت لـه ظهـر المجـن، وقطعـت العلائـق.

- أوضـح يا عمّي. لم أفهم ما تقول.

- أقـول إن مكيدتنـا لإبعـاد إبراهيـم عـن تلـك الفتـاة غريبـة قـد نجحـت تمامًـا. وأنـا أشـكرك عـلى قيامـك بـدورك فيهـا خـير قيـام.

ودخلـت فـدوى، ورأت أمـارات الدهشـة عـلى وجـه ابنتهـا فعلمـت بمـا تعرفـه مـن ثرثـرة إميـل بـك أن ابنتهـا وقفـت عـلى تفاصيـل المكيـدة. فحيـت أميـل بـك وأشـارت إليـه بالانـصراف. وبعـد ذهـاب أقبلـت عـلى ابنتهـا تلاطفهـا. ولـك الفتـاة أعرضـت عنهـا وقالـت:

- مـا هـذا الـذي يقولـه أميـل بـك يـا والـدتي؟! أَوَصَلَـت بنـا الخسّـة إلى هـذا الحـد؟! أَأنـا أسـتعمل آلـة صـماء للحيلولـة بـين إبراهيـم ومعشـوقاته؟

- ولكـن مـا هذا الذي تقولين يا بُنيّتي؟

- أقـول إن إميـل بـك جـاء ليشـكرني عـلى مهـارتي في القيـام بـدوري الخطـير في المكيـدة التـي دبّرتماهـا أنـت وهـو!

- اسكتي يا بُنيّتي لا تصيحي هكذا! أنا لم أفعل ذلك إلّا من أجلك! ألا تعلمين أن إبراهيم يساعدك بقسط المدرسة. ولو لم تقومي بهذا الدور لسعى والده لديه بقطعه. ثم إني فقيرة يا بُنيّتي وقد ضقت ذرعًا بمطاليبك وقد دفع لي للقيام بهذا العمل البسيط عشر جنيهات ستصرف كلها عليك وعلى ألبستك. ووعدني أن يزيدني متى تمّ النجاح.

- اسمعي يا والدتي وأنا أقول لك إن هذه المكيدة لا بدّ أن تظهر، وإن عرف بها إبراهيم فسوف يقطع عني مساعدته. وحينئذ لا ينفعني أميل بك ولا أنت.

- ومن يعلمه بذلك يا بُنيّتي؟

- أنا بذاتي. الأوفق أن يعلم بذلك مني من أن يعلم من غيري. ثم أيجوز أن نخون رجلًا قام لإسعافنا دون أقاربنا من أجل مبلغ هو جزء مما ينفقه علينا كل سنة.

- ولكن ما هذه الفضيحة؟ الأمر تمّ يا بنيّتي فيجب أن يبقى مستورًا.

- اسردي عليّ تفاصيل هذه الرواية كي نتدبر معًا بطريقة لدرءِ أذاها بدون أن ينالنا مكروه.

- نعم يا بُنيّتي الأمر بسيط! فإن إميل بك يرى من العار أن يتزوج ابنه بفتاة قروية مسلمة تُدعى غريبة، وإبراهيم مجنون بحبها،

وقـد جـاء إليّ ورجـاني أن أسـاعده عـلى تنفيـذ خطـة ملائمـة رسـمها لي لإبعادهـا عنـه. فراقبـت المـرأة التـي تقطـن الفتـاة في بيتهـا عنـد رجوعهـا مـن المدرسـة، وتعرفـت بهـا وأخـذت أزورهـا حتـى إذا عـادت الفتـاة أخبرتهـا عرضًـا بـأن إبراهيـم بـك قـد خطـب سـيدة جميلـة. فطلبـت إليّ أن تراهـا. فدعوتهـا إلى هنـا في اليـوم الـذي رجوتـك فيـه أن تـزوري إبراهيـم لأجـل شـكره عـلى مسـاعدتك وشـجعتك عـلى التـودد إليـه بداعـي أن إميـل بـك أظهـر رغبتـه في تقريـب إبراهيـم إليـك. وقـد قـال لي إميـل أن أخـبرك بالخطـة لتكـوني عـلى بصـيرة مـن القيـام بـدورك. غـير أني تيقّنـت أنـك إن عرفـت المكيـدة فلـن تقـتربي منهـا بـل لسـعيت في إفسـادها، ورجـوت أني بتشـجيعك عـلى التـودد إليـه تقومـين بالـدور خـير قيـام بـدون علـم منـك بالمكيـدة. وكان مـا كان.

- والمسكينة؟

- أمـا المسـكينة فقـد أُغمـيَ عليهـا. فأرسـلتها إلى بيتهـا وبعـد يومـين انقطـع إبراهيـم عـن زيارتهـا.

- يـا لهـا مـن مكيـدة سـافلة ضحيتـما فيهـا قلبـين متحابـين! وأنـا بطلـة الروايـة! لا هـذا لـن يكـون أبـدًا!

- ومـاذا عوّلت أن تفعل؟

- لا أدري سـأذهب تـوًّا إلى إبراهيـم وأروي لـه مـا علمـت وأطلـب عفـوه.

- عائـدة؟ ماذا تقولين. هل جننت؟

- لا بـل هداني الله إلى الصواب!

- لا يـا بنُيّتـي! اصـبري لنتدبـر في الأمـر. إن هـذه الفتـاة نقيـة القلـب طاهـرة السريـرة. وهـي اليـوم في ورطـة عظيمـة. فـإذا انتشـلناها مـما هـي فيـه عـلى شرط أن تكتـم سرّنـا نكـون قـد رفعنـا الأذى عنهـا، ولم نغضـب إميـل بـك واحتفظنـا بالمبلـغ.

- وكيف ذلك؟

- تذهبـين أنـت إلى الفتـاة. وبعـد أن تأخـذي منهـا المواثيـق عـلى كتـمان مـا جـرى تذكريـن لهـا حقيقـة الأمـر. فترجـع إلى سـابق حبهـا لإبراهيـم وبذلـك تحبـط المكيـدة بالنسـبة إليهـما وتبقـى ناجحـة بالنسـبة إلينـا وفي نظـر أميـل!

- جيّـد جدًّا! إذن لنعمل من الآن.

واسـتدلّت عائـدة منهـا عـلى بيـت أحمـد وانطلقـت إليـه بحـزم وعـزم. وقابلتهـا أم أحمـد عـلى البـاب فقالـت:

- هل السـيدة غريبة في البيت؟

- نعم يا بُنيّتي!

- لقـد كلّفنـي بعـض صديقاتهـا في المدرسـة أن أقابلهـا وأحمـل لهـا منهـن أشـواقًا كثـيرة فهـل يمكننـي أن أقابلهـا؟

- بكل ارتياح. مسكينة غريبة لقد صار لها أسبوع تتألم من صداع شديد. وقد نحل جسمها واصفرّ لونها من قلة النوم والأكل. فلعلّها تجد فيك وفي أخبار صاحباتها تسلية تلهيها عمّا هي فيه من ألمٍ شديد. تفضّلي. تفضلي!

أدخلتها إلى غرفة الاستقبال وذهبت لإرسال غريبة. فقعدت عائدة بقلبٍ يخفق تنتظر قدوم تلك التي كانت هي الآلة التي سحقت قلبها.

وما عتمت أن دخلت عليها تلك الضحية. فإذا هي مَلَكٌ كريم. قد زادها تقطب حاجبيها هيبة. وأكسبها اصفرار وجهها جاذبية حتى لا يتمالك القلب أن يعطف عليها ويغمرها بحنانه.

وتفرّست غريبة في وجه الزائرة ثم وقفت جامدةً كأنها أيقونة من الشمع. وعرفت عائدة أسباب هذا الجمود فتقدمت إليها واضعة أصبعها على فمها وقالت:

- اصمتي! كل ما رأيت فهو كذب محض وقد جئتك الآن بالخبر اليقين.

فصعد الدم إلى وجه غريبة. ولمعت عيناها. وأخذ قلبها يخفق وقالت باضطراب:

- قولي ماذا؟

- أقسمي لي أولًا أنك سوف تكتمين كل ما سأقوله لك ما دام هذا

الكتـمان لا يـضرّ بأحـد. فأقسـمت غريبـة عـلى ذلـك. وألقـت نفسـها عـلى المقعـد بجانبهـا تسـتمع لمـا تقـول. وأخـذت عائـدة تقـص عليهـا تفاصيـل تلـك الروايـة. ولم تنتـه منهـا حتـى ارتمـت غريبـة عليهـا تقبلهـا وتغـدق عليهـا شـكرًا جزيـلًا.

وكان الوقـت عـصرًا. وإبراهيـم في مكتبـه ولا بـد مـن أن تـراه حـالًا وتقـول لـه «نعـم قبلـت وكفـى!» ولبسـت ملاءتهـا وذهبـت إلى المكتـب ولكنهـا توقفـت عـن الصعـود. ومـاذا تفعـل فتـاة هنـاك؟ وربمـا كان ذلـك لا يليـق؟ ومـاذا يقـول أحمـد لـو رآهـا؟ وجمـدت مكانهـا تائهـة الفكـر. وإذ بإبراهيـم يقـف أمامهـا حائـرًا مبهوتًـا. وكان قـد رجـع إلى المكتـب في تلـك البرهـة. فرآهـا وعرفهـا وتقـدم إليهـا حزينًـا كسـير الخاطـر مشـتّت الفكـر! قالـت:

- كنـتُ مارّة من هنا وضللت الطريق.

- أتودّيـن أن أوصلك إلى البيت؟

- لا! أليـس هذا مكتبك؟

- نعم

- لم أره مطلقًا

- تفضّلي إذن الآن.

وصعـد وراءهـا مدهوشًـا فـلا يـدري هـل جـاءت لإسـعاده أم لإشـقائه. وكانـت محجوبـة الوجـه. فلـمّا دخـل إلى الغرفـة رفعـت منديلهـا فانحـسر

عـن وجـه شـديد الاصفـرار. وعينـين مكسـورتي الجفنـين وفـمٍ يرتجـف تأثُّـرًا. ووقـف إبراهيـم أمامهـا حائـرًا مدهوشًـا. فـما الـذي جـاء بهـا بعـد ذلـك الفتـور؟ ومـا هـو الـسرّ الـذي تخفيـه في طيّـات قلبهـا؟ ثـم تبدّلـت صفرتهـا بحمـرة الخجـل وحـيرة عينيهـا بعـزمٍ وحـزمٍ وقالـت:

- أين أحمد؟

- سأرسـل إليـه في الحـال. وتقـدم نحـو البـاب وأمـر الخـادم أن يذهـب بسـيارة ويعـود بأحمـد أفنـدي مـن عـمارة الشركـة. ثـم رجـع إليهـا فقالـت:

- جئـت لأعتـذر إليـك عـمّا بـدر منـي نحـوك في الأسـبوع المـاضي. فقـد كان تسرُّعًـا منـي وخطـأ أن أحكـم وأقطـع في الأمـر لمجـرد نظـرة وبـدون تفكـير!

- غريبـة! إني أعـرف أنـك لا تخطئـين نحـوي ولا تسـيئين إليّ، بعـد أن أكـدت لـك بجميـع جوارحـي أنـك أمـلي في هـذه الدنيـا، ومنـك أنتظـر السـعادة، وبدونـك الشـقاء. فأنـت لا تحتاجـين إلى اعتـذار إليّ بـل أنـا أعتـذر إليـك لمـا سـببته لـك مـن عـذاب أرى اليـوم تأثـيره ظاهـرًا عـلى وجهـك الشـاحب وصوتـك الحزيـن! إن مـا أريـده منـك هـو أن تفتحـي لي قلبـك كـما فتحـت قلبـي لـك، وتطلعينـي عـلى سـبب ذلـك الفتـور. لا لأغضـب ولا لأنتقـم، فـإن مـن ينظـر إليـك ويتصـل بصفـاء قلبـك يمقـت الغضـب والانتقـام ولا يذكـر إلّا النبـل والطهـر والرحمـة. ولكـن لـكي أؤكـد لـك وهـم مـا ذهبـت إليـه. وإننـي آلـة في يـدك تصنعـين بهـا

مـا تشـائين، وتوجهينهـا أينـما تريديـن، فإمـا إلى سـعادة تنسـيني جميـع أحـزاني وعـذابي وإمـا إلى شـقاء عـلى شـقاء وعـذاب عـلى عـذاب.

- إني أتوسّـل إليـك ألَّا تطلـب إليّ إفشـاء سرّ تعهـدت بكتمانـه ويكفـي أن أقـول لـك أني أؤمـن بـكل مـا قلـت ولـن يؤثـر عـليّ بعـد اليـوم سـمع ولا بـصر إلَّا مـا كان منـك ولـك!

- ولكـن يجـب أن نتصـارح في الأمـر. لقـد فكـرت كثـيرًا بسـبب ذلـك الفتـور فلـم أرَ مـن أتهمـه أمامـي غـير أحمـد! وأحمـد أخـي وصديقـي. فيجـب أن أعـرف فيـما إذا كانـت لـه علاقـة في ذلـك الـسرّ فالتمـس لـه عـذرًا وإلَّا فاعتـذر إليـه.

- فنظـرت إليه نظرة عتـب نفذت إلى صميم قلبه وقالت:

- لا عجـب إن ظننـت بأحمـد سـوء بعـد أن ظننـت أنـا بـك لـك. ولكـن أؤكـد لـك أن ليـس لأحمـد ولا لأمـه أي علاقـة أو علـم بـشيء مـما جـرى!

- إذن والآن فهلا تجيبيني على سـؤالي؟

فعلـت وجهها حمـرة الخجل وتلفتت إلى الوراء وقالت:

- لقد أجبتك!

فظـن أنهـا تعنـي جوابهـا في ذلـك اليـوم العابـس فانتفـض ثانيـة ونظـر إليهـا نظـرة توسُّـل واسـتعطاف وقـال:

- متى؟

- الآن!

فتقدم إليها عندئذ مدفوعًا بنارٍ تأججت في قلبه! وأراد أن يضمها إلى صدره ونسي الدنيا وما فيها فأوقفته وقالت:

- تمهّل لا تتسرع فالوقت كله أمامنا.

- وسمعا وقع خطوات أحمد يتقدم إلى الغرفة. ففتح له إبراهيم الباب فدخل يلهث من الحرّ. ولما رأى غريبة وقف في الباب مدهوشًا. فمد إبراهيم إليه يده وقال:

- لماذا جمدت مكانك؟ تعالَ فبارك لي بالسعادة والهناء! ولكن لا! يجب عليّ أن أعتذر إليك أولًا! خيّلت لي الظنون والأوهام أنك كنت سبب فتور غريبة نحو في الأسبوع الماضي. أما الآن فقد تحققت سوء ظني ووهمي فأرجو عفوك.

فأجابه أحمد برقّته وخجله المعروف:

- لا اعتذار ولا كلفة بيننا. إني أبارك لك من صميم قلبي! وقالت غريبة برصانتها الغريزية:

- لا تتسرّعوا! يجب أولًا أن نطلب رضا الوالدة. ثم على إبراهيم أن يستشير.... والده فقال إبراهيم والعزم يبدو على وجهه:

- أرجوك يا غريبة. بل أتوسّل إليك بحبي ورجائي وآمالي ألَّا تعلقي سعادتي على أمر غير رضاك وها قد نلته فلنتقدم إلى السعادة

مسرعـين!

وتقدم نحو الباب ونادى كاتبه حسـين أفندي وقال له:

- اتـرك جميـع أعمالـك واذهـب في الحـال. وأجـرِ جميـع المقتضيـات الشرعيـة لـدى القـاضي لتغيـير مذهبـي وعقـد قـراني عـلى غريبـة. اذهـب الآن ولا تتأخّـر! أتظـنّ أن ذلـك ينتهـي غـدًا.

- ماذا تقول يا سـيدي أن هذا يحتاج لأكثر من أسـبوع!

- أسـبوع؟ هـذا كثـير. عـلى كل اذهـب ولا تتأخّـر لحظـة وابـذل الجهـد في الإسراع.

قـال هـذا ورجـع إليهـما مهتـاج الأعصـاب، لامـع العينـين خافـق القلـب محلـول اللسـان. لقـد ظفـر بمـا يبغـي بعـد عـذاب أليـم وصـبر طويـل. والآن يريـد أن يحتفـظ بظفـره ويطـير بغنمـه! يريـد أن يتقـي نوائـب الدهـر، وصروف الحدثـان! ووقفـت غريبـة واجمـة تائهـة الفكـر لا تـرى إلَّا هـو ولا تسـمع إلَّا لمـا يقـول. وليكـن مـا يريـد! وخـشي أحمـد أن يعكـر صفـو تلـك اللحظـة فوافـق إبراهيـم عـلى عملـه الحـازم. فتنفـس إبراهيـم الهـواء بمـلءِ رئتيـه وقـال:

- والآن وقـد دفعنـا خطتنا للتنفيذ، فهيّا بنا نكتسـب رضا الوالدة.

السهم الأخير

ورجـع إبراهيـم مسـاءً إلى بيتـه قريـر العـين، رضيّ الخاطـر. ولكنـه كان متوتـر الأعصـاب ملـولًا يـودّ لـو يطـوي ذلـك الأسـبوع في ثبـات عميـق، بعيـدًا عـن النـاس حتـى لا يـراه أحـد، ولا يفكـر فيـه أحـد. فـلا تنصـب لـه الحبائـل ولا تُحـاك لـه المكائـد. وبعـد أن تنـاول طعـام العشـاء. تقـدم إلى والـده، وقـال:

- أنـت تعلـم يـا والـدي كـم تعذّبـت في هـذه الدنيـا، وكـم تلقّيـت مـن مصائـب؟!

- نعـم يـا ولدي وكل ذلك برًّا وتكفيرًا عن ذنوبي.

- اعلـم يـا والـدي أن ذلـك العـذاب قـد أوشـك أن ينتهـي. وبكلمـة منـك أنـت أثـب فـإذا أنـا في أحضـان السـعادة!

- بكلمـة؟ بل بأي تضحية! بل بحياتي!

- لقـد تمّـت خطبتـي عـلى غريبـة. وبعـد أسـبوع يتـم العقـد الشرعـي وتحكـم بيننـا العـروة التـي لا انفصـام لهـا. ولذلـك أريـد رضـاك وبركتـك!

فجمـد الـدم في عـروق ذلـك الشـيخ المتهـدم الأركان! المحلـول القـوى! المبلبـل الفكـر! وتحقـق أن مكيدتـه التـي تكبـد مـن أجلهـا النفقـات والأتعـاب قـد عصفـت بهـا ريـاح الحـب. ورأى في عينـي ابنـه عزيمـة تفـلّ الحديـد، وإرادة لا تقـف أمـام عائـق فصمـت قليـلًا يفكـر وبسرعـة البـرق

رسـم خطتـه وقـرر إطـلاق سـهمه الأخـير. وتكلـف الـتردد وقـال:

- ذلـك جيـد يـا بُنـيّ وليـس لـك منـي غـير الرضـا والـبركات. ولكـن أقـوال النـاس في المسـألة الدينيـة مـاذا رتبـت لهـا؟

- لقـد ذكـرت لـك فكـري وعزمـي في هـذا الشـأن وذلـك سـيتم قبـل العقـد. وفكـري هـذا سـوف ينفـذ أن اقترنـت بهـا أو لم أقـترن بهـا عـلى السـواء.

- ذلـك لـك يـا بُنـيّ. نعـم لقـد تعذبـت كثـيرًا مـن أجـلي! وأنـت الآن أعقـل منـي وأوعـى، وأحـرص عـلى سـمعتك. فـما تـراه صوابًـا فهـو عنـدي الصـواب.

وانكفـأ إبراهيـم عـلى يـديّ والـده وركبتيـه وكسـاهما قبـلًا حـارّة بـارّة. وأخـذ يحادثـه ويستشـيره بأمـور العـرس، وترتيـب البيـت، وشـهر العسـل. وأخـيرًا نهـض لينـام، وقـد أثقـل النعـاس جفنيـه، وتمطّـى عـلى سريـره قريـر العـين، مطمـئنّ النفـس، يطلـب نومًـا عميقًـا هادئًـا لم يذقـه منـذ أسـبوع.

ونهـض الوالـد المعـذَّب للعمـل، وفي تلـك السـاعة المتأخِّـرة مـن الليـل! نعيـم يجـب أن يطلـق سـهمه النهـائي. يجـب أن يحـول دون وقـوع هـذه الكارثـة ولـو علـم ابنـه في النهايـة بذلـك السرّ الرهيـب! أهـون عليـه، وهـو اليـوم عـلى حافَّـة القـبر، أن يتلقـى غضـب ولـده مـن أن يعـرِّض نفسـه لغضـب اللـه والنـاس أجمعـين! لا يعلـم ذلـك السرَّ إلَّا هـو والحويطـي. فليـأت الحويطـي ويطـير بفتاتـه فينجـوان مـن غضـب اللـه!

قـام كالمعتـوه يركـض في الليـل البهيـم مـن وكالـة سـيارات إلى أخـرى! الـكل مغلـق والجميـع نيـام. ولكـن لا بـد مـن تنفيـذ الخطـة في الحـال. إنـه يعـرف بيـت ذلـك السـواق حامـد. هـو الشـخص المطلـوب لتنفيـذ هـذه الخطـة.

قـرع بـاب بيـت حقـير بالقـرب مـن الميناء. وأعـاد القـرع وأيقـظ الجـيران. وفي النهايـة أجابـه صـوت أبـحّ أجـشّ مـن النافـذة. أخـذ يلعـن الأرض والسـماء وصنعـة السـواقة وقـال:

- واللـه يـا بـك إني لسـت بطبيـب. ولم أقسـم اليمـين عـلى تلبيـة طلـب الزبائـن في أول الليـل وآخـره.

- افتـح افتـح يا حامد جئتك بأمرٍ موافق

- وإن كنـت لا أريد هذا الأمر الموافق؟

- افتـح فقـط وإن لم يعجبـك طلبي فلك أن تردّه. افتح! عجّل!

فتـح البـاب ودخـل الشـيخ إلى دهليـز قـذر، ثـم إلى غرفـة أقـذر منـه لم تكنـس منـذ أسـبوع ولم تغسـل منـذ سـنة. وقـد خلـت مـن الفـراش غـير سريـر قديـم أجـرد. فجلـس في الحـال عـلى حافَّتـه. وأخـرج مـن جيبـه ورقـة بخمـس جنيهـات وقدمهـا لحامـد «رسـم اصغـاء». فابتسـم الرجـل وأخـذ يصلـح قعدتـه وألبسـته، وقـد كان نائمًـا بهـا جميعًـا، احترامًـا للضيـف الكريـم بـل «لأم الخمسـة».

- اسـمع يـا رجـل أنـت فقـير! واللـه إني أعطـف عليـك وأحـب دائمًـا

أن تنتفع. الأمر هيّن وبسيط ولكن في غاية الكتمان والسرعة. ولذلك لم أرَ آمن منك ولا أسرع منك. يوجد في بلدة جنين رجل شيخ اسمه محمد الحويطي. أريد منك أن توصل إليه رسالة منّي وتحمله على المجيء معك إلى حيفا في الحال ولو ليومٍ واحد. وعِده بأنك توصله ثانية إلى بيته. هذا كل ما في الأمر. ومتى أتيت بالرجل وتمّ العمل فدعت لك خمسًا أخرى.

- على رأسي يا بك الآن أهب وأنبش عن الرجل ولو من قبره وأحضره لكَ حيًّا ميّتًا.

- ومتى جئت به أنزله في بيت أحمد الواسطي مساعد ابني هل عرفته؟

- بكل تأكيد

- ها هي الرسالة. وهي غفل من الإمضاء. لا بأس أن تقرأها له أنت. ولكن لا تدعه يطّلع عليها أحدًا. وبعد تلاوتها غافله واحتفظ بها وردّها لي. كل هذا على أن يكون الأمر في غاية الكتمان. قل إنك لا تعرف إلَّا أن رجلا رجاك أن تأتي بالحويطي من جنين وسلَّمك أجرتك. هذا كل الأمر. احرص على الكتمان. وبعدئذٍ تعالَ إليّ في البيت فأعطيك بقية الحساب.

- توكّل على الله يا بك. غدًا قبل الظهر يكون في حيفا. وتبقى المسألة طيّ الكتمان والله وكيلك على ذلك.

رجع إميل بك إلى البيت وقد رفع عن كاهله بعض ذلك الوقر الثقيل بتنفيذ الخطوة الأولى من خطته بنجاح. ولكن ماذا يخبئه الغد؟ ها هو يواجه سَتّة وجميع أهل سَتّة بمواجهة هذا الشيخ الذي كان كبير أهلها وعاقلهم. وماذا سيكون له مع هذا الشيخ الجريء الصريح؟ ألم يكفهِ فقدان سَتّة وثمن سَتّة وعزّ سَتّة حتى تبعه أهل سَتّة بمعنون فيه عذابًا، ومنه انتقامًا. فهو يراهم أينما كان وفي كل آن! غدًا سيواجه الحويطي فكيف يقابله وماذا يقول له؟ وهل يكون قد أتى به ليصبّ عليه كأس غضبه ونار انتقامه؟ أم ينسيه بعمل حاسم موفق جميع مصائب سَتّة وانتقام أهلها؟! ولكن أيرجو ذلك منه وهو إحدى ضحاياه. والناقمين عليه والمشتّتين بيده! من يعلم؟ لعلّ الله يهديه إلى صراطٍ مستقيم. وعلى كل حال يجب أن يمنع اقتران ابنه بابنته. يجب أن يحول دون وقوع هذه السُبّة الدهرية. يجب أن يتحمل كل تضحية في الأرض لينجو من جحيم السماء.

***

واندفعت سيارة حامد في آخر الليل نحو جنين، فوصلتها صباحًا. وجال في أسواقها يسأل عن رجل يُقال له محمد الحويطي. ومن هو محمد الحويطي؟ لا يوجد في جنين من يُقال له الحويطي. وترك السوق وارتفع نحو البيوت يسأل هذا ويستعلم من ذلك إلى أن التقى بشيخٍ وقورٍ جاثم باب بيت أحقر من بيته. وقد نالت منه السنون. وبدا على وجهه الضعف. ولم يبقَ من نضارة ذلك الوجه السمح غير عينين برّاقتين تنمان عن ذكاء شديد وشخصية فذّة وضمير حيّ.

- هـا هـو الحويطـي أمامـك يـا بُنـيّ حطمـه الدهـر. ونـاء بـه فـماذا تريـد منـه؟

- أنت أنت؟ والله يا شـيخ صار لي سـاعات أفتّش عنك فلا أجدك.

- ومـن يعرفنـي يـا ولـدي هنـا وأنـا رجـل غريـب لا يعرفنـي إلّا أهـل هـذه المحلـة باسـم الشـيخ. أمـا الحويطـي فقـد ذهـب وذهـب عـزّه وأيّامـه الغـر منـذ أن فـارق بيتـه وأهلـه. ولم يبـقَ منـه إلّا هـذا الرسـم البـالي! قـل يـا ولـدي. مـا عنـدك!

- لقـد أتيت من حيفا....

- أتيـت مـن حيفـا؟ كيـف حـال أحمـد وغريبـة؟ بـارك اللـه فيهـما. لـولا أحمـد يـا بُنـيّ لمـتّ جوعًـا منـذ أن أقعـدني الكـبر عـن العمـل.

- لقد جئتك من حيفا بهذه الرسـالة

- ولكنـي لا أقرأ يا ولدي

- أنـا أقرأها لك إن أردت

- اقرأها يا بُنيّ. عسـاها تحمل خبرًا سـارًّا.

فقرأ:

«إلى الشيخ الوقور محمد الحويطي المحترم،

لقد تمّت خطبة غريبة ربيبتك على إبراهيم بن إميل، وبعد يومين ينفذ سهم القضاء ويقترنا. لقد عرفت السرّ وأنت مسؤول عن وقوع هذه السُبّة إن وقعت أمام الله والناس. اركب حالًا وتعالَ لنتعاون على درءِ المصيبة والسلام.»

سمع الحويطي هذا وجمد في مكانه! يا الله ما أقسى صروف الدهر! أيمن هذا؟ أين العدالة الإلهية؟ ولكن أليست هي العدالة الإلهية تنتقم من الولد بجريرة الوالد؟ لقد علم من أحمد الصدف التي جمعته بإبراهيم. وإكرام إبراهيم له وتوظيفه في مكتبه ولكنه لم يعلم بذلك الحبّ وتلك العزيمة! والآن ماذا يصنع؟ أيذهب ويقول لذلك الشاب الطاهر الذيل والقلب. «اخلع قلبك من بين جنبيك وألقهِ تذروه الرياح!» ولذلك الملاك الطاهر «واسحقي أنتِ فؤادك فهذا حظّك في الدنيا!» أم يترك الأمور تجري في أعنّتها، ويدع ذلك الشيطان العاتي لنفسه يجني ثمرة ما غرس. ويتحمّل انقضاض هذه الصاعقة بما اقترفه نحو ثلاثمائة ضحية حكم عليها بطيشه وقسوته بالشتات والجوع والبرد والحرمان والموت؟! ولكن لا! إنه يعرف السرّ وقد أصاب ذلك الطاغية بقوله إنه مسؤول أمام الله إن لم يحل دون وقوع هذه اللعنة إلّا بدية!

نهـض الشـيخ يرتكـز عـلى عصـاه. وتنـاول حامـد ذراعـه الأخـرى. وأغلـق البـاب واسـتخار اللـه في الذهـاب لـدرءِ هـذا المصـاب. فوصـل حيفـا ظهـرًا ووجـد أحمـد في البيـت فظـنَّ هـذا أنـه حـضر بعـد أن علـم بخطبـة ربيبتـه ليشـاطرهم أفـراح ذلـك التوفيـق.

فتقدمـوا إليهـم كلهـم يرحبـون بـه ويكرمونـه وهـو واجـم لا يـدري مـاذا يقـول. وبعـد الغـداء تقـدم إلى أحمـد وقـال لـه عـلى حـدة:

لي كلمـة يـا بُنـيّ اقولهـا لـك وأعـمال سـأطلب إليـك تنفيذهـا فأرجـوك الآن أن تصغـي إليّ وتقـوم بهـا ولا تسـألني عنهـا شـيئًا.

فاصفـر لـون أحمـد وتحقّـق أن في الأمـر كارثـة جديـدة. ولكنـه كان يثـق بالحويطـي وتعقّلـه فقـال:

قل يا والدي وعـليّ التنفيذ! فقال الحويطي:

- إن هنـاك سرًّا هائـلًا يحـول دون اقـتران إبراهيـم بـك المديـر بغريبـة وسأكشـف لـك عـن هـذا الـسرّ عنـد الاقتضـاء وسـتوافقني عـلى مـا أكون قـد فعلـت. فخـذني الآن إلى بيـت إبراهيـم إذا كان خـرج منـه واتركنـي مـع والـده مـدة سـاعة مـن الزمـن ثـم عـد بإبراهيـم بعـد أن تكـون قـد أخبرتـه بممانعتـي في هـذا الـزواج، عـلى أن تشـجعه عـلى إرضـائي بـه وإرجاعـي عـن عزمـي، حتـى لا يقـع عليـه الخـبر دفعـةً واحـدة فيؤذيـه. وعندمـا تأتيـان أكـون قـد دبّـرت طريقـة ملائمـة بالاتفـاق مـع أميـل لدفـع الأذى بأقـلّ مـا يمكـن مـن الـضرر. فهيّـا يـا ولـدي وليهدنـا اللـه

إلى سـواء السـبيل!

- ولكـن لقد أزال إبراهيـم جميع الموانع حتى المانع الديني

- حتى هذا يا بُنيّ لا يزيل شـيئًا من ذلك المانع!

وخرجـا مــن البيــت في السـاعة الثالثــة بحجــة قضـاء حاجــة تختــص بالحويطـي. ولما تحققـا خـروج إبراهيـم مـن البيـت إلى عملـه. رجـع أحمـد إليـه ودقّ الحويطـي بـاب البيـت فـإذا هـو أمـام أميـل بـك المديـر وجهًـا لوجــه!

أهـذا هـو إميـل؟ أيـن ذلـك الشـباب الزاهـي، وتلـك النظـرات الدالـة عـلى الخيـلاء والغطرسـة، وتلـك الأناقـة في الملبـس واللياقـة في الحركـة؟! ذهبـت كلهـا هبـاءً منثـورًا! هـذا إميـل بـك اليـوم، جسـم متهـدّم ووجـه حزيـن ونفـس كئيبـة ونظـرات حائـرة وقلـب كسـير!

- تفضّل يا شـيخنا. اسـترح هنا. بل هنا أريح.

دعنــا مــن الراحــة الجســدية يــا رجــل وتعــال نســتجلب لقلوبنــا راحــة نفسـية! نعـم نعـم هـذا هـو الواجـب فـما رأيـك؟

- بـل ما رأيك أنت؟

- أرى أن تأخـذ غريبـة وترحـل في الحـال إلى حيـث لا يعلـم إبراهيـم. وعـلى أن أقـدم لـك مبلغًـا مـن المـال في كل شـهر لتعيـش بـه معهـا حتـى يفتـح اللـه عليهـا بشـخصٍ آخـر.

- عجيب يا إميل! أنت أنت لم تتغير في نفسك وإنما تغير وجهك! هذه طرقك، وهذه أفكارك كما عرفتها قبل سبع سنين. تبغي أن تشتري أرواح الناس ونفوسهم وضمائرهم بأموالك. وتطلب بعدها أن تتمتع براحة نفسك. لا أيها الرجل! لن أكسر قلب ولدك بيدي. ولن أتظاهر باقتراف جرم أمام ربيبتي وابنتك. ولن أمثل دور الخاطف الدنيء أمام الناس. إن لديّ طريقة واحدة أتيت لاتخاذها بطلب منك وهي طريقة الصدق. فإن حسنت نتيجتها كان لك منها راحة الضمير. وإن ساءت تحمّلت تبعة آثامك وفجورك وخرجت أستغفر الله من عاقبة ظلمك وقسوتك!

خرجت هذه الكلمات القاسية من جوف ذلك الشيخ الي أكل الدهر عليه وشرب بصوت عميق ونبرات صريحة واضحة فكان كأنه صوت القضاء ويد الانتقام. فتلعثم أميل وقال:

- لا يا شيخ! كن رؤوفًا بهذا الوالد الكسير القلب، المبلبل الفكر، المعذّب النفس!

- هل رأفت بتلك الوالدة المهيضة الجانب الكسيرة القلب يوم أن ماتت تحت سنابك جوادك؟ وهل بررت بابنتها وابنتك يوم أن هامت على وجهها لا نصير ولا معين حتى قيّض الله لها من أخذوها وعلّموها وأعدّوها بدون علم منهم لتنتقم منك أو لتضطرك على البرّ بها والحدب عليها.

- لقد كفّرت. لقد كفّرت كثيرًا!

- وعمّـن كفّـرت وعـن أي جنايـة كفّـرت. وهـا أنـت لا تـزال تتبـع الجناية بمثلها وتصلـح الفاسـد بمـا فسـد وتسـعى لـدرءِ المصيبـة بالمصيبة!

- إذن افعـل أنـت مـا تريـد. تـصرّف كـما تشـاء ولكـن لا تبـحّ بالـسر لولـدي!

- لا لا بـل عليـك أنـت أن تقـوم لولـدك فتعـترف لـه بمـا كان وتتقـدم إلى ابنتـك فتضمهـا إليـك. وتعيـش معهـا مرتـاح الضمـير قريـر العـين، وتكـون هـذه التضحيـة فاتحـة سـعادة لـك ولولديـك التعيسـين بـك وبأعمالـك.

- لا لا هـذا لـن يكـون أبـدًا! كل شيء إلّا هـذا. أَأَعـترف أمـام ولـدي والعـالم بأمـر قمـت بـه في ميعـة الشـباب ونـزوات الفتـوّة. يحـدث مثلـه كل يـوم بـين النـاس مئـات الحـوادث فـلا يـدري بهـا أحـد! وابنـي! ذلـك الفتـى الحسّـاس النقـيّ الضمـير الشريـف النفـس ألّا يحـترق يأسًـا ألّا يمـوت غـمًّا؟! وكل ذلـك بيـدي وبأفعـالي. لا لا لـن آتِ بهـا مطلقًـا!

- ولكـن مصلحـة ربيبتـي تقتـضي ذلـك. إن مصلحتهـا تقتـضي أن يعـرف ابنـك بهـذا الـسرّ. واليـوم، وذلـك مـا سـيكون شـئت أم كرهـت! فـإن كان اللـه قـد خلقـك مـن الجـماد فقـد خلـق فيـه صفـات الإنسـان الحـيّ.

- وكأن إميـل بـك أصابـه مـسّ مـن الجنـون. فأخـذ يشـتم سَـتّة وأهـل سَـتّة والأحيـاء منهـم والأمـوات. وقـام يدفـع بذلـك الشـيخ إلى الخـارج لئـلّا يسـمع أحـد مـا يقـول ويفتضـح سرّه. يجـب أن يُرجعـه إلى جنـين في الحـال رضى أم كـره. أيـن ذلـك الرجـل الـذي أتى بـه؟!

- قِفْ قِفْ أنت سجين هنا حتى يأتي السواق ويرسلك إلى جهنم التي أتيت منها. وهمّ بالخروج وإقفال الباب على ذلك الشيخ الضعيف كي يستدعي حامد ويلقيه في سيارته فيندفع به إلى جنين. وإذ بصوتِ سيارة تقف باب البيت.

- الحمد لله! ها هو حامد جاء ليقبض بقية أجرته. لقد أرسلته العناية إليّ! قُمْ أيها الشيخ اللعين! قُمْ إلى بلدك! قُم ارحل!

وتقدم إلى الباب وإذا به يفتح وإذ بابنه أمامه مكفهّر الوجه جامد النظر حائر الفكر. فقال:

- يا الله! وقعت المصيبة وحكم القضاء!

وهبط الحويطي مكانه منهوك القوى. ووقف أحمد ينظر تارةً إلى إميل بك وطوراً إلى الحويطي ويقرؤ على وجهيهما تفاصيل حوادث مريعة مرّت بهما في تلك الساعة. وأراد إبراهيم أن يتكلم فأشار إليه الحويطي بالسكوت حتى يستريح ويلتقط نفسه! ولما هدأت أعصاب الجميع تنهّد الحويطي وأصلح قعدته وقال بتؤدة ووقار ولطف:

- هل تحبّ غريبة يا إبراهيم؟

- إلى درجة العبادة!

- وتريد خيرها وسعادتها؟

- هذا ما سأُكرّس حياتي لتحقيقه!

- إذن فخذها لك أختًا لا زوجةً!

- أيها الشيخ الوقور! ألا قُلْ لي. ألم تحبّ في زمانك؟ ألم تذق نار الهوى المشتعلة بين الضلوع! وهل تظنّ أن الحبّ نيران تُطفأ بالأقوال؟ لا لا أيها الشيخ إنك تتكلم فقط وأما أنا فأحترق. أنت ترسم خطة من وراء حجاب وأنا أنقذها في العراء وتحت النيران. أريد أن أعرف يا سيدي لماذا يكون خير غريبة وسعادتها في أن تكون أختي لا زوجتي. وحبّنا متبادل؟

- هناك يا بُنيّ فوارق جَمّة لا تنكر!

- وأي فوارق هذه. إني حمدتُ هذا الحبّ لأنه أتاح لي الفرصة لرفع هذه الفوارق سواء أكانت اجتماعية أم دينية. نعم يا سيدي إنه ليهمّني من غريبة صفاتها وقلبها لا غير. وإني إن انتقلت من النصرانية إلى الإسلام فإنما أنتقل من رحمة الله وطاعته إلى رحمة الله وطاعته وفي ذلك خدمة جليَّة لوطني وتنفيذ لمبادئي.

- ولكن يا بُنيّ إن هناك أمرًا عظيمًا يحجبها عنك ويمنعك عنها وهذا الأمر سرّ لا أودّ أن أكون مذيعه وناقض عهدي في كتمانه.

- لا يا سيّدي لا يوجد في الأرض ما يمنعها عني إلّا هي نفسها وما دامت قد وهبتني نفسها فلن يقف في سبيلنا أحد! كفى أيها الناس! كفى أسرارًا وكفى مكائد. لقد تحمّلت كثيرًا من هذه الحبائل التي تنصب لي وهذه الأسرار التي أهدّد بها! نعم لقد

تحمّلت كثيرًا منذ أن فتحت عيني للنور. فكنت شقيًّا بشقاء أمي قبل وفاتها. وشقيًّا بشقاء أبي في حياته. وهأنذا أركض وراء السعادة التي ألقتها العناية الإلهية في طريقي وكلما أردت أن أمدّ لها يدًا، ضربتم تلك اليد ورددتموني بقلبٍ كسيرٍ وجناحٍ مهيض! ربّ! ماذا جنيت حتى كتبت لي كل هذا العذاب!

رفع الشيخ بصره إلى إميل بك وقد أعيته الحيل ورقّ قلبه لهذا الابن التعِسْ المنكود الحظ وقال بصوتٍ أجشّ:

- لقد جاء دورك فتكلّم!

وانقلبت أنظار الجميع إلى إميل بك وحملق به ابنه ليلتقف ما سيقول وينزل على رأسه لعنة الابن البار على والد ليس ببار، إن كان هو ذلك المانع الذي يحول بينه وبين سعادته!

وأراد إميل أن يتكلم فارتجّ عليه. واستدلّ ولده من ملامحه أن سرّ هذا الأمر في يده فتقدم إليه وقال:

- أبي! ألم أكُنْ بِكَ برًّا وعليك شفيقًا؟ ألا تقول كلمتك فتخرجني من هذا الظلام القاتل إلى نور الحقيقة. إن مفتاح سعادتي في يدك ألّا تسلّمني هذا المفتاح؟ قال يا والدي ما بالك واجمًا؟ ما بالك حائرًا؟!

وقال الحويطي:

- تقدم يا إميل إلى ابنك وأنقذه مما هو فيه. خذه إلى غير هذه الغرفة واعترف له بطيشك وغرورك لعلّ الله أن ينظر إليك في عذابك ويخفّف عنك!

سمع إبراهيم هذا الكلام وتحقّق أن هناك جناية اقترفتها يد أبيه وهي التي تمنع عنه السعادة والهناء. تحقّق الآن أن تحلك الحبائل والمكائد التي نصبت له إنما كانت من بنات أفكار والده وثمرة ما صنعت يداه. فتقدم إلى ذلك الوالد المنكمش في ثيابه وقال:

- أبي أبي! لقد كنت نقمتي، وسبب شقائي وعذابي! لقد غرست أنت عمل السوء فأكلت أنا ثمره المرّ. لقد ألقيت في طريقي أشواك ظلمك وطيشك وغرورك فمررت عليها عاريَ القدمين داميَ المقلتين! لقد حرمتني عطف أمي بقتلها بظلمك وجورك فعشت يتيمًا محرومًا! وهأنذا أتقدم لبناء بيتي بيدي وأُنشئ سعادتي بنفسي فأجدك أنت الهادم وأنت المريب! فهل بقي سهمٌ في كنانتك تصوّبه إلى صدري؟! افعل ذلك وعليّ أن احتمل!

قام إميل بك وكأنه الميت يخرج من قبره ومشى إلى الغرفة المحاذية بدون أن يتكلم. وتبعه ابنه بخطوات واسعة ثابتة وكأنه صمّم على تلقّي المصاب بملءِ صدره. وساد صمتٌ رهيبٌ في الغرفة.

وبعد برهة وجيزة سمع أحمد باب البيت يفتح ثم يغلق بشدة

فأطلّ من النافذة. فإذا إبراهيم يسير خارجًا كأنه سهم القضاء. وقد تاهَ فكره وعميَ بصره. فتقدم يريد اللحاق به وإذ بإميل يدخل.

- الحمد لله قلت له كل شيء. لم يقل كلمة ولا أتى بحركة، بل خرج يفرّج عن نفسه من شدّة وقع الخبر المفاجئ عليه. قال أحمد:

- يجب أن أتبعه لعلّه يستأنس بي، أو يحتاج لمساعدتي.

- لا لا. أتركه لوحده. إني أعرفُ منك به. إن السير على انفراد في الهواء الطلق يهدئ أعصابه ويرفّه عنه نفسه ويجذبه إلى التفكير العميق فلا يخرج منه حتى يكون قد رتّب أموره وهيّأ لنفسه خطة ملائمة فيها مصلحته ومصلحتي، أيضًا.

فخرج أحمد والحويطي إلى البيت. وكان على هذا أن يتقدم إلى ربيبته ويطلب إليها قتل حبها المتأجّج وهيامها المستعر. فوجداها بانتظارهما وهي على أحرّ من الجمر. فهي تودّ أن تعرف من الحويطي أمورًا كثيرة. تريد أن تسأله عن إبراهيم بك الكبير جدّ إبراهيم. وعن والدتها ووالدها. وتستمع إلى حكمته وقصصه القديمة. فلما دخلا شعرت بانقباضٍ يستولي على نفسها. ذلك أنها قرأت في وجهيهما سيماء الألم والاضطراب. فحدّثتها نفسها أنّ في الأمر نكبة، وأنّ النكبة واقعة عليها دون غيرها، وأيّ نكبةٍ وأيّ شيءٍ لها غير حبها المستعر. فالنكبة هناك ومن هناك! في قلبها ومن قلبها. فوقفت صامتة.

وتقدم إليها الحويطي فضمّها إلى صدره، ونظر إلى عينيها الحائرتين

بلطـفٍ وحنـانٍ وقـال:

- غريبة! أتحبّين إبراهيم؟ وتريدين سـعادته؟

فخفضـت غريبة ببصرها وقالت:

- أليـس هو خطيبي اليوم وزوجي غدًا؟

- وإن تـرك هو الخطبة؟

- ذلك مسـتحيل! لقد خدعت مرّة واحدة فلن أخدع مرّة أخرى!

- أتظنّين أنّي أخدعك؟

- لا

- وإذن؟

- أنت واهم فقط!

- اصغـي إليّ يـا بُنيّـة! إني أقـول لـك إن قرانـك بإبراهيـم أمـرٌ مسـتحيل. ولكـن ذلـك لا يمنـع أن تكـوني أختـه العزيـزة عليـه المحترمـة لديـه.

اصفـرّ وجههـا وحـارت نظراتهـا، وانبسـط أمـام عينيهـا ظـلامٌ دامـس وصاحـت:

- كفـى كفـى! لا أريـد أن أسـمع! لا أريـد أن أعـرف شـيئًا! لقـد علمـت أن تلـك نعمـةً أعظـم مـما أسـتحق. لقـد شـعرت منـذ البـدءِ أن يتيمـة

فقيرة مثلي لن تكون لمثله. لقد كنت أشعر أن ذلك منام لا يقظة. فاتركوني أسعد بتلك الرؤيا! أنتم لا تريدون أن يكون لي وأكون له. ذلك يكفي فلن أخرج عن طاعتكم وأنتم أعلم مني بما يصلح لنفسي. ولكن شيئًا واحدًا أريد أن أحتفظ به، هو حبّه. أحبّ أن أستمع لأخباره وأن أراه من بعيد وأن أُكرّس قلبي له ولحبّه بدون علمه! فأجابها الحويطي وقلبه يذوب شفقة:

- لا يا بُنيّتي! لا نُريد كل هذا منك. بل نُريد أن نُبقي على حبّك له بمعرفته ورضائه، وأن تبقي له الأخت الأمينة المحبّة المحبوبة. يراك متى أراد ومتى شئت وأنت هنا في كنف ابن عمّك. فتكونين له كما كنت لأحمد. فأجابت بصوتٍ خفيض:

- نعم نعم. يكفي أن أراه وأن أحيا بنظراته الحارّة المنعشة، وأتمتّع بسماع صوته العذب. هذا يكفي. فأنا يتيمة وفقيرة وحقيرة فلا يجب أن أطمع بأكثر من ذلك!

وسالت دموع القوم مدرارًا وصمتوا طويلًا. ثم خرج الحويطي إلى الخارج متركزاً على يد أحمد، حتى إذا انفردا في الشارع قال الحويطي:

- والآن يا بُنيّ. بقي عليّ أن أطلعك على هذا السرّ فإني أخاف قلبي ألَّا يحتمل كل هذه الشدائد فيخونني قبل أن أطلعك عليه وأحمّلك مسؤوليته. ولي في إخلاصك لهذه الفتاة وحدبك عليها ما يملأ قلبي ثقة بأنك ستبقى لها الحافظ الأمين مهما غير هذا السرّ من وضعها نحوك.

فأرهف أحمد سمعه وقد ازداد خفقان قلبه. وقال الحويطي:

- الأمر يا بُنيّ بسيط ونحن الآن في غِنى عن التفصيل. إن إميل بك المدير خلّف ولدين. الواحد شرعي والآخر سِفَاح. أما الشرعي فهو إبراهيم وأما السِّفَاح فهو غريبة. هذا هو السرّ فيجب أن تحتفظ به لنفسك وتخفيه عن الناس أجمعين وعنها، أيضًا. فإذا اعترف بها إبراهيم وضمّها إليه بعد أن عرف من أبيه بهذا السرّ كما رأيت، فهو أوْلَى منك أن يعرفها بنفسها وإلّا فلتبق لديك ابنة عمك، وإن لك فيها كنزًا ينير بيتك ويؤنس قلبك. ومن يعرف ما تأتي به الأيّام!

وقف أحمد مبهوتًا حائرًا أمام هذه المفاجأة. ولكنه شعر بشيءٍ من الراحة إذ تحقق أن إبراهيم سيحضر إليها ويأخذها بيده ويعترف بها وينقلها إلى بيته فتصبح السيدة المطاعة ويراها سعيدة في حياتها الجديدة وهذا كل ما يريد. ويكون هذا الحادث نعم الحادث ولقاءهما على هذا الشكل نعم اللقاء. ثم أرجع الشيخ إلى البيت وانطلق كالسهم يبحث عن إبراهيم ليخفّف عنه وقع الخبر عليه ويعزّه على فقد خطيبته ويبارك له في لقاء أخته.

***

أما ذلك المسكين، المنكود الحظّ المكدود الجهد، فقد خرج هائمًا على وجهه تائه الفكر مهصور القلب. مشدود العقل. لا يرى أمامه إلاّ ظلامًا وظلمًا. أليست هذه دار شقاء لم يذق فيها طعم الراحة والرأفة.

أليس هؤلاء أبناؤها لم يجد منهم غير العنت والغش والخداع؟ لقد دخل إلى هذه الدنيا الشقية حزينًا كئيبًا. ثم تقدم فيها يسير بتحفُّظ، على سنن الحكمة والعقل، بقلبٍ سليم وضميرٍ حيّ، وفكرٍ ثاقب، فلم يجد منها إلاّ إعراضًا ومن أهلها إلّا صدودًا. وها هو الآن أمام هذه الكارثة التي قضت على آماله وحبّه وسعادته!

أقبل عليه الناس منذ أن أقبلت عليه الدنيا بمادته الغرارة وأطلقوا عليه بناتهم لاقتناصه والتودّد إليه وللتقرب منه، فلم يجد في نفسه ميلًا وفي قلبه حبًّا، حتى جمعته الصدف بأخته فتدله بحبها من النظرة الأولى. وكتم عنه أبوه أمرها حتى أصبح فيها متيمًا مأخوذ العقل. ما أظلم هذه الأقدار! أهذه مشيئة الله؟ أهذه عدالته؟ نعم هذه عدالته وهذا انتقامه! إنما هو ضحية من ضحايا والده. بل ذبيحة تقدم للتكفير عن ذنوبه. هذا ما كتب له. هذا حظه في الدنيا. وهل كان هو أسوأ حظًّا من أولئك الفقراء التعساء الذين أخرهم أبوه من ديارهم وناولهم إلى يد البؤس والشقاء؟ إذن فمصيبته في والده، وظلم والده، وكيد والده! ومتى كانت هذه المصائب؟ ومتى كان هذا الظلم؟ ومتى بدأ هذا الشقاء؟ يوم أن باع سَتّة! ويوم أن نثر بأهل سَتّة بالفضاء الواسع فإذا كل منهم يدعو الله عليه ويطلب الانتقام منه. وتلك الصدف وتلك التصاريف إنما هي تدابير حكيم مقتدر، قصدها وغايتها الانتقام، الانتقام!

سار على شاطئ البحر ساعةً بعد ساعة، وقلبه يضطرم بنيران الحبّ اليائس، ورأسه يستعر بحمّى الغضب والسخط. وقد تصبّب العرق

مـن جسـمه. فنظـر إلى البحـر وأحـسّ بشـعورٍ قـويٍّ يدفعـه إليـه تخفيفًـا لتلـك الحـرارة المرهقـة في جسـمه ونفسـه. وكان يحسـن السـباحة ويرتـاح إليهـا. فليعالـج نفسـه بهـا لعلّـه يطـرد تلـك الأفـكار ويزيـل تلـك الحـرارة ثـم يرجـع إلى الشـاطئ فيلقـي نفسـه في أحضانـه ويقـرر مـاذا يجـب عملـه بعـد اليـوم وقـد انقلبـت لـه الحيـاة ظهـرًا لبطـن وداخلـت حياتـه شـخصية أخـرى. نعـم! المـاء نعمـة اللـه في الأرض فليغـص في لججهـا وليطلـب فيهـا راحـة لجسـمه وقلبـه!

وانسـاب الشـاب في اليـمّ بقـوة وحـذق. وقابـل الأمـواج يضربهـا بصـدرٍ محمـوم ملتهـب. وكلـما زاد إمعانًـا بالدخـول في لجـج البحـر شـعر براحـة تمـرُّ عـلى رأسـه وقلبـه وجسـمه. وتقـدم إلى الأمـام، إلى الأمـام. ولم يلتفـت ولم ينظـر إلّا إلى جبـال الأمـواج المرتفعـة أمـام عينيـه تحملـه الواحـدة لتسـلمه إلى الأخـرى. حتـى شـعر بالـكلال والـبرد. فالتفـت وراءه فـإذا هـو في عـرض البحـر فخفـق قلبـه وقفـل راجعًـا. ولكـن إلى أيـن؟ المـوج يقاومـه والتيـار يجـرّ بـه إلى الـوراء والتعـب ينهكـه. وكأن البحـر قـد أنشـبَ أظافـره في فريسـته فـلا تطيـق منـه إفلاتًـا ولا يرغـب عنهـا انفـكاكًا.

شـعر بالخطـر. ودارت الدنيـا في رأسـه فـإذا هـي بعيـدة بُعـد السـماء عـن الأرض وكأنـه لم يكـن عليهـا قبـل نصـف سـاعة وكأنـه لم يكـن مـن أبنائهـا. وأخـذ يرفـع بيـده ويحركهـا في الفضـاء عـلّ أحـدًا يـراه فيـأتي لإغاثتـه.

وشـاءت الأقـدار أن يمـرّ أحمـد بتلـك البقعـة مـن الشـاطئ وهـو يبحـث عنـه ويجـد ثيابـه فينظـر حولـه فـلا يجـد أحـدًا فيطلـق نظـره في عـرض

البحـر فـيرى هنـاك بقعـةً سـوداء تلاطـم الأمـواج وتقـاوم التيـار. ويغـوص في لجـج اليـمّ كالمعتـوه. ويمـدّ ذراعيـه الطويلتـين فـإذا هـو كالسـهم النافـذ. ويشـعر بقوتـه الفائقـة ويسـتجمعها لدفعـه. ويصـل إلى أخيـه بعـد جهـدٍ جهيـد. فهـل هـو حـي أم ميـت؟ انسـاب إليـه وألقـاه عـلى ظهـره وأمسـكه بطـرف عنقـه واندفـع نحـو الشـاطئ. وكان جهـاد وكان جـلاد. وكان تقلـب بـين يـأسٍ ورجـاء وحيـاةٍ ومـوت. إلى أن دفعتـه الموجـة الأخـيرة إلى الشـاطئ بحملـه العزيـز.

رفعــه إلى اليابســة، وأخــذ يُجــري لــه إســعافات الغرقــى بمســاعدة مــن التــفّ حولــه مــن المــارّة. ولكــن إبراهيــم ظــلّ مغمــض العينــين ســاكن القلــب. فنقلــوه في ســيارة إلى المستشــفى ولكــن..... لــكي يســمعوا حكــم القضــاء..... لقــد كان وفــات! ســبحان الحــيّ الباقــي!

الدُّمُوع

ثلاثـة تؤنـس النفـس المكلومـة، وترطّـب القلـب الحزيـن. الدُّمُـوع والإحسـان والتفكـير في مصائـب النـاس! وبهـذه الثلاثـة أخـذ أحمـد يعالـج نفـس غريبـة المظلومـة وقلبـه الحزيـن. فهـما كل يـوم يمطـران ثـراه بالدمـع الدّامـي. ثـم يطوفـان عـلى بيـوت خيّـم البـؤس عليهـا فيواسـيان ويقدمـان لسـكانها جهـد المقـل. هكـذا شـهدت لهـما أيـام سـنة كاملـة. فـإذا مـا دقّـت السـاعة وعـدّا واحـد اثنـين ثلاثـة أربعـة، قامـا بـلا كلام ولا اسـتعداد. وفي يدهـا حقيبـة وفي يـده كتـاب، فطافـا يؤديـان مـا عليهـما بدقـة وانتظـام. ثـم عـادا وقـد ذرفـا دمعًـا، وقدّمـا إحسـانًا، وواسـيا مصابًـا.

وهنـاك في البيـت الصغـير أنعـم اللـه عليهـما بنفـسٍ كريمـةٍ كبـيرةٍ مطمئنـةٍ تؤنـس بعـض وحشـتهما وتغمرهـما بحـرارة إيمانهـا. فـإذا مـا عـادا إليـه تقدمـت إليهـما في ذلـك الهيـكل البـالي المعـروف بالحويطـي. وحبّـذت مـا قدمـا مـن إحسـان ومـا واسـيا مـن مصـاب!

وهـل فـرح الصغـار بالحلـوى؟ ومـاذا قالـت الأم؟ أمـا زالـت تنتحـب وتتألّـم؟ والطفـل الصغـير. ألا يـزال يـرى والـده تحـت عجـلات السـيارة مضرّجًـا بدمـه؟ وقلتـما لـه إنـه في الجنـة! وسـيراه في نومـه؟ مـا أكرمـكِ يـا غريبـة! ومـا أقـدركِ عـلى إرضـاء الصغـار والتحبُّـب إليهـم وإقصـاء أحزانهـم! وأنـت مـسرورة بذلـك. عـودا إليهـم يـا بُنيّتـي غـدًا وخُـذا لهـم حصّتـي مـن فاكهـة الغـداء. وبعـد غـدٍ تـزوران ذلـك المسـلول البائـس.

وأما تلك الدموع التي هي أصل الشقاء، فلم يكن ذلك الشيخ المحنّك ليقترب منها. فلا يرجو لها تخفيفًا ولا يطلب لها من مزيد.

تلك إحساسات عميقة لا تطولها يده بل يد الأيّام. وهي عصارة عواطف ناضجة ناهية لا تجففها أنفاسه بل أنفاس الزمان. إن التربة التي ضمّت بين أحشائها تلك النفس الكبيرة التي ملأت قلبيهما حبًّا وإعجابًا لم ترتوِ بعد! فليرطبّاها كل يومٍ بما يسكبان فوقها من دمعٍ، وما ينثران حولها من عواطف!

وفي الصباح كان أحمد يندفع إلى عمله لينتش خبزه في أوقات عصيبة وقد افتتح مع حسين أفندي مكتبًا للمقاولات. وزاولا أعمالها بجدّ وأمانة واستقامة. وقد تمكنا من تسجيل اسم شراكتهما لدى أصحاب الأعمال، وقاما بأشغال موفقة كانت تدرّ عليهما رزق الكفاف.

وكان أحمد يشعر أنه إنما يجدّ ويجهد النفس ليدخل السرور إلى قلب غريبة. من أجل غريبة نفسها! ومن أجل أخيها الذي ارتحل يوم أن وجدها. ومن أجل نفسه، أيضًا. فقد كان يجد راحة ولذّة في إنعاش نفسها الكئيبة وفي تخفيف ما طوته ضلوعها من حزن عميق. وكانت نفسه تضطرم بإحساسات منوعة نحوها لا يدري ما يسميها، ولا كيف يفسرها ولا إلى أي شيء يرجعها. فهو يشعر بأنها أخته وليست بأخته. وأنها ابنة عمّه وليست كذلك. وأنه يهواها ولا يجرؤ على التفكير بذلك. إنه كان يتحقق من أمرٍ واحدٍ وهو أنها معنى حياته. فلولاها لما وجد دافعًا للعمل. ولولاها لما وجد لذّة في العيش! وكان يعمل

لأمـر واحـد، هـو إدخـال الراحـة إلى قلبهـا المعـذّب. هـذا مـا تحقـق ولهـذا مـا جـدّ ولا يريـد أن يفكـر أو يعـرف غـير ذلـك!

وأمـا تلـك المسـكينة، التـي كتـب لهـا الشـقاء مـن يـوم أن دخلـت هـذا العـالم فقـد أنهكهـا الحـزن وأنضجتهـا حـرى الجمـوع، فـزال مـن عينهـا ذلـك النـور المتلألـئ ومـن فمهـا تلـك الابتسـامة العـذراء. ومـن قدّهـا ذلـك الامتشـاق الممتـع. وقـد انحبـس لسـانها يـوم أن انطلقـت دموعهـا، وزالـت نضارتهـا يـوم أن حلّـت أشـجانها، فهـي لا تفكـر إلّا بأمـرٍ واحـدٍ - هـو!- ولا تعمـل إلّا لذكـرى شيءٍ واحـدٍ - هـو! - فهـي تسـكب الدمـع مـن أجلـه وتحسـن إلى البؤسـاء باسـمه وتـواسي المصابـين لذكـره!

وكان الحويطـي يسـتلقي كل يـوم عـلى كرسـيه خـارج البيـت ويصـوّب إلى كل ذلـك نظـر الناقـد البصـير. ويعجبـه أن يـرى أحمـد مندفعًـا في مرضـاة غريبـة ذلـك الاندفـاع. وقـد علـم أنهـا ليسـت بقريبتـه، وأنهـا عنـه بعـد السـماء عـن الأرض. وهـو لا تبـدو عليـه سـيمة مـن أحـبّ فاسـتكان فعبـد. أو مـن وضـع خطـة ونصـب شركًا لاقتنـاص قلـبٍ حائـرٍ فهـو يرتقـب الفـرص، ويـداور الظـروف وينتظـر صروف الأيـام. لا هـذا ولا ذاك بـل كان وإيّاهـا كالخـادم الأمـين يتبـع سـيدته ويحـرص عليهـا ويسـتميت في مرضاتهـا دون أن يجـسر عـلى النظـر إليهـا. ولكـن هـل هـذه عواطـف البـشر؟! أهـذا مـا علّمتـه الأيّـام؟! إن معرفـة عواطـف النـاس أصعـب مـن معرفـة لغـة العصافـير؟ فليصمـت وليراقـب.

وكـرّت الأيّـام وتعاقـب الملـوان. وكان الخريـف سـنة ١٩٣١ شـديد الحـرّ.

فـكان قاطنـو ذلـك البيـت الصغـير. إذا مـا قامـوا عـن مائـدة الغـداء، ومالـت الشـمس نحـو المغـرب، اسـتلقى كل منهـم عـلى كرسـيه في ظـل البيـت يتلقـون نسـيم البحـر. وكانـت غريبـة يومًـا قاعـدة هـذه القعـدة بجانـب الشـيخ وقبالتهـا أحمـد عـلى قيـد خطـوت. وقـد ران الكـرى عـلى جفنيـه فأخـذ يغـط غطيطًـا هادئًـا. وألقـى شـيخ نظـره عليـه، وأخـذ يتفـرس في وجهـه، وقـد بانـت أسـاريره. وارتسـم فيـه مـا انطـوت عليـه ضلوعـه مـن عواطـف. فظهـر وجـه محـب ولهـان، معـذب مسـتعطف، عصفـت بـه الريـاح، وقاومتـه أعاصـير هـذه الحيـاة. فبـدا شـاحبًا نحيـلًا تعلـوه تجاعيـد الهـمّ والهـرم. فوجـم الشـيخ صامتًـا حائـرًا. وكّانـه اكتشـف سرّاً خفـي عنـه، فأخذتـه هـزَّة العجـب والاسـتغراب، وأحـسّ بحنـان الوالـد الشـفيق الرفيـق. ولفـت نظـره إلى غريبـة، وهـي غارقـة في أفكارهـا لا تشـعر لـشيء ولا تعـي لـشيء. وقـال بصـوتٍ رقيـق واطـئ.

- انظـري يـا بنُيّتـي إلى ذلـك الوجـه! ألا تقرئـين فيـه آيـات العـذاب والـكلال والنصـب؟ أيـن تلـك الصحـة التـي كانـت تتدفـق منـه؟ لقـد زالـت وحـل مكانهـا خطـوط متوازيـة وتجاعيـد غـير متوازيـة. وتلـك الابتسـامة التـي كانـت تلعـب حـول هـذا الفـم؟ لقـد تبدّلـت بعبـوس وتقطيـب. وتلـك النـضرة التـي كانـت تتـلألأ عـلى ذلـك الجبـين فتـدل عـلى اطمئنـان في النفـس وهـدوء في القلـب؟ لقـد تبدّلـت بحـيرة وألم!

وألقـت الفتـاة نظرهـا عـلى ذلـك النائـم، فأدهشـها ذلـك الانقـلاب السريـع. نعـم إنهـا لتذكـر ذلـك الوجـه بصحتـه واطمئنانـه وثقتـه. فـترى البَـوْن شاسـعًا بينـه وبـين هـذا الوجـه! الجديـد بهزالـه واضطرابـه وألمـه. ويحهـا!

كيـف أنهـا لم تنظـر إليـه فـترى ذلـك التبـدل طيلـة هـذه الأيّـام؟ لقـد كانـت عميـاء إلّا عـن أمـرٍ واحـد، أمـا الآن فهـي تـرى.

- ولم هـذا التبـدل المرعـب يـا عـمّاه؟ إنـه يخيفنـي! قـل مـا سـببه وكيـف علاجه؟

- اعلمـي يـا بُنيّتـي أن هـذا المسـكين يغـدو في الصبـاح إلى عملـه والطـير في وكناتهـا، فيجاهـد ويجالـد اسـتدرارًا للـرزق، وقـد تضاعفـت تكاليفـه منـذ أن أمسـكني وإيّـاك لديـه، ثـم يعـود فـلا يـكاد يسـتريح حتـى يسـلم إليـك نفسـه ويلقـي إليـك مقاليـده، فتذهبـان ولا تعـودان إلّا في المسـاء، فـلا يـرى إلاّ دموعًـا، ولا يسـمع إلّا أنينًـا ولا يحـسّ إلّا عذابًـا، فإذا عدتمـا إلى البيـت أطلقـت أنـا لسـاني، وأرهقـت أنـت سـمعك لقصـصي وأحاديثـي، وسـلم هـو قلبـه للعواطـف والهمـوم تخترمـه اختزامًـا.

- ومـاذا تشـير عـليّ أن أصنـع؟ أرشـدني يـا عـمّاه. إني أكاد أذوب شـفقة عليـه.

- لا تفعـلي شـيئاً يـا بُنيّتـي! بـل راقبيـه وفكـري فيـه. فالمراقبـة والتفكـير يهديانـك إلى مـا يخفـف عنـه ويفـرج مـن كربـه.

- ومـرّت بُرهـة. وفتـح النائـم عينيـه فالتقتـا بعينيهـا. فـرأى فيهـما حنانًـا وشـعر بعطـف وأحـسّ بتبـدّل! فـرق ودق. ونظـر إليهـا نظـرة أودعهـا كل مـا يضطـرم في فـؤاده مـن عواطـف وكل مـا في نفسـه مـن عـذاب.

- هـل انفتـح هـذا البـاب المغلـق؟ مـرّ هـذا السـؤال عـلى خاطـره.

فاستحيى منه وألقى بنظره إلى الأرض! أما هي فقد أخذتها الدهشة ولازمتها الحيرة من تلك النظرة. أيمكن أن يكون هذا؟ وهل كان يحبها؟ ومنذ متى؟ وهل أصاب في ذلك؟ وهل لديها ما تعطيه إيّاه؟ لا! فقلبها ذهب مع من ذهب! فليس لها قلب تعطيه. وإن طلب يدها؟ إنها تضحي بكل شيءٍ من أجله. وترضى بما يريد فتعطيه يدها. وأما قلبها فليس في يدها.

الربيع

في الربيع تنتشر الأحياء على وجه البسيطة؟ وفي الفضاء الواسع، مدفوعة بعاطفة واحدة - الحبّ - فالطيور على أغصانها تتشاكى، والوحوش في أوغالها تتصارع، والدواب والهوام يتبع بعضها بعضًا، والعاطفة تحدوها، والحبّ يضطرم في جوانحها. فالربيع هو الشباب. فهواؤه وماؤه وصفاؤه. وعبيره وخضيره ونضرته تجدد الشباب. وتملأ النفس بميعته والقلب بعاطفته.

في الربيع ـ ربيع الحياة وربيع الموسم ـ سار أحمد وغريبة يتلمّسان أماكن البؤس، ويتحسّسان مكامن الشقاء، فيرطبان نفسهما بالمؤاساة والإحسان، وهناك في طرف البلدة حيث اكتظت أكواخ، بل أخصاص من الخشب البالي، والتنك المخرّق، يجدان ما يطلبان ويقعان على ما يبغيان، هناك مركز الانتقال. عائلات تأتي وعائلات تذهب، فأما التي تأتي ففي طلب الحياة، وأما التي تذهب فمجروفة بسيل الفناء. فالآتون هم الذين كتب عليهم الشقاء، فأخرجوا من أراضيهم، وطردوا من بيوتهم، وسلبوا أعمالهم، وشتّتوا في الأرض، إشباعًا لطمع المالك من أبناء أمتهم، ولجشع المستعمرين من آفات البشر والغرور «الذين ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله». فإذا ما ألقت العائلة منهم عصا ترحالها المضني تقاسمتها أيدي المصائب، فالناضجات من البنات لمواخير الفساد، والبالغون من البنين لأوكار الشقاوة، والشيوخ والأطفال للقبور حزنًا وجوعًا.

كل هـذا وحكومـة نـصرة الشـعوب الضعيفـة! ودولـة إنهـاض الأمـم المنحطة! وحاملـة قسـطاس العـدل بـين النـاس! تفتـش عـن الذيـن أخلّـوا بيوتهـم وأراضيهـم وأعمالهـم كي يؤسّـس اليهـود عـلى أنقاضهـم وطنًـا قوميًّـا، فـلا تجـد منهـم أحـدًا! فسـبحان مـن خلـق للنـاس عيونًـا تـرى ولا تـرى! وآذانًـا تسـمع ولا تسـمع!

نعـم في يـومٍ مـن أيّـام الربيـع، وقـف أحمـد وغريبـة أمـام كـوخ، أسـتغفر اللـه، بـل خـصّ مـن تلـك الأخصـاص، وصوّبـا نظرهـما إلى داخلـه.... أم في أسـبالها ترضـع طفـلًا في خرقـه، وتنظـر إليـه بعطـف وحنـان وحـبّ، فـلا تـرى أحـدًا ولا تسـمع شـيئًا ولا تشـعر بوجـود أحـد! عاطفـة ربيـع الحيـاة وعاطفـة ربيـع الموسـم!

وأمسـكت غريبـة بـذراع أحمـد، وضغطـت عليـه ثـم اجتذبتـه إلى الـوراء إجـلالًا لذلـك المنظـر الممتـع، وخشـية إزعـاج تلـك الـروح السـابحة في حبّهـا الطاهـر، وقالـت بـدون تفكـير:

- مـا أحـلى الأمومـة! فألقـى أحمـد عليهـا نظـرة ملؤهـا الحـبّ والاسـتعطاف وقـال: ومـا أحـلى الحـبّ الطاهـر!

- فخفضـت غريبـة بصرهـا إلى الأرض وكسـت وجههـا حمـرة الخجـل. ثـم تقدمـت لـلأم بهديتهـا. فقالـت هـذه:

- أطـال اللـه عمـرك وعمـر زوجـك! ورزقكـما ولـدًا. وأنعـم عليـك بحنـان الرضاع.

فوقف المحسنان مأخوذين من سماع هذه الكلمات الساذجة، وكلاهما ملتهب الوجه، وكلاهما خافض النظر. وخرجا صامتين، وعادا إلى البيت. وشعر أحمد بدوار في الطريق، فأوقف عربة واستقلّاها وألقى برأسه إلى الوراء تعبًا مكدودًا. وأطبق عينيه. فصوّبت غريبة إليه نظرها وأمسكت بيده وقالت بهدوء: أحمد! هل تتألّم؟ فقال:

- نعم.

قالت:

- مماذا؟

فقال:

- ممّا في الضلوع!

فصمتت واستكانت، وهاجمها هواء الربيع، وداهمتها عاطفته. وبدون تفكير أو شعور ألقت برأسها على صدره، وطوّقها بيديه. وانفتح ذلك الهيكل المغلق. ودخله ذلك العابد الولهان!

بيك سَتّة

أعلنت صحف حيفا خبر زفاف الشاب النشيط والمقاول المعروف السيد أحمد الواسطي على الآنسة المهذّبة ابنة عمّه. واستلقى الشيخ الحويطي على مقعده باب البيت الصغير قرير العين هادئ البال. وأخذت أم أحمد تطوف البيت كالمأخوذة فهي تعمل ولا تعمل - هي أم العريس - وارتفعت سيماء الوحشة عن ذلك البيت، وحلّت مكانها حركة الحياة والبشر والطمأنينة.

وأقبل أحمد على الشيخ عملاقًا بين الرجال. والسرور يتدفق من وجهه والنور من عينيه. وأقبلت غريبة وراءه وقد عادت فاستقامت سيدة لها جمالها وقلبها وحبها وذكاؤها وشعورها في الحياة وفي كل ما في الحياة من غبطة وسرور. فقال الشيخ:

- والآن وقد أفاض الله علينا بما تحبّان ألا تسألان هذا الشيخ البالي عن مطلب يبتغيه وليانة يقضيها؟

- سَلْ يا عمّاه فكل حاجة لك قبلنا مقضية.

- أريد يا ولدي، وقد أوصلت الأمانة إلى مستقرّ لها أمين، أن أقف على قبر من أودعتنيها، وأسكب عليها دمعة الرضا، وأقرأ عليه ويستمع إلى أراجيز الحادّين، ودعوات الدّاعين وتلاوة الكتاب لمبين! أما اليوم فلا زوّار ولا مسلمين ولا عربية! وتلك البقاع التي نبت فيها وترعرع وقضى ربيع الحياة، واقتطف نضرة الشباب ونشاط

الكهولة وحكمت الشيخوخة، ماذا حلّ بها؟ سالت دموعه على لحيته البيضاء. ثم استجمع قواه وزفر زفرة الصاخب البائس، وزمجر بمرارة وكآبة «تلاصقك اللعنة يا إميل إلى يوم الدين. أنت ومن جنوا جنايتك ونسجوا على منوالك.» وصمت رفاقه احترامًا لتلك الدموع التي لم يروها في حياتهم.

وسارت بهم السيارة رويدًا نحو سَتّة لا بل زيونيا. وطافت بهم هنا وهناك. وهم يبحثون عن مقر لهم فلا يجدونه. وبعد جهدٍ تجرّعوا خلاله نظرات كريهة وغصّاتٍ أليمة، وقفوا أمام مقبرة قديمة العهد. أحيطت بحائطٍ مهدّم الأركان، وقد طال فيها العشب البائس ولعبت فيها الأفاعي والحشرات. فنزلوا والشيخ رائدهم إلى قبر كاد يندرس قد كان أودع فيه بيديه المرتعشتين، رفات تلك الأم الحزينة المكلومة الثائرة. وقبل أن يصل إليه وقف مبهوتًا وقد فغر فاه، وجحظت عيناه، وأخذ ينظر أمامه والهلع يملأ فؤاده، إلى جثة منكمشة في خِرق بالية! وقد باتت عليها صفرة الموت، وزالت منها حرارة الحياة. فأشار الشيخ إليها أمامه وقال: «هذه نهاية انتقام سَتّة» وتقدم أحمد وأمّه والفتاة. فرأوا إميل المدير جثّة هامدة. فقال أحمد «سبحان المتنقم الجبّار. سبحان الحيّ الباقي» وانحدرت دموع غريبة وقالت: «لقد صار إلى ربه! فلنطلب له الرحمة والغفران!»

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان